الباب الثاني

الإسلام والمذاهب الفكرية

الإسلام والمذاهب الفكرية

سنعني في هذا الباب بتناول بعض المذاهب الفكرية لاسيما المعاصرة بمنهج مقارن بحيث نضع إزاءها آراء مفكري الإسلام، إذ نرى كما قلنا في المقدمة ضرورة تزويد المسلم المعاصر بعامة، والطالب الجامعي بخاصة بزاد الفكر الذي يحصنه في مواجهة تأثير سحر حضارة أوروبا، حتى لا تخدعه المظاهر البراقة للتقدم العلمي التكنولوجي عن حقيقتها ودوافعها ومظاهر تحللها.

وها هو المؤرخ الكبير توينبي يقرر أنه بينما تظل الحضارة في حالة سكون أو انحدار في طريق الانحلال، ترتقي الأساليب التكنولوجية والمادية أثناء ذلك الانحلال.

أما عن دوافعها فبسبب ما حققه التقدم التكنولوجي في القضاء على عنصر المسافة المكانية، أصبح التنافس على عالم اليوم بين طريقتي الحياة الغربية والروسية قائمًا على أشده لإخضاع البشرية لواحدة منهما[1].

وإذا أردنا تقديم البرهان على ضرورة تعديل النظرة إلى هذه الحضارة، فإننا نستطلع رأيه بشيء من التفصيل فهو (يرى أن التوسع السياسي أو العسكري ليس دليلًا على النمو الحضاري بل قد يحدث أعظم توسع إقليمي في مرحلة مبكرة من مراحل تحلل إحدى الحضارة ثم انهيارها، وكذلك فإن التحسن الفني من المحتمل أن يؤدي إلى وأد الحضارة.. لأن التحسن الفني في نظر توينبي، قد يمتص جميع طاقات النشاط، وبذلك يصبح المجتمع عبدًا لهذا التحسن بدلًا من أن يكون سيدًا له، ومن ثم فالحضارة يمكن أن تتجدد أو تنهار بعد ذلك بل ورغم كل مظاهر هذا التقدم المادي[2].

---

(1) لمعي المطيعي: أرنولد توينبي ص**117** .

(2) لمعي المطيعي: أرنولد توينبي ص**116** .

وعلينا في هذه المرحلة التمهيدية أن نبين ما للحضارة الأوروبية المعاصرة من مظاهر مقتصرين على بيان اثنين منها:

: النظرة الفلسفية لتفسير الوجود والإنسان: حقيقته ودوره وأهدافه، هذه النظرة التي تراوحت بين النزعة المادية المفرطة في القرن التاسع عشر والانقلاب الروحي على يد أمثال برجسون وبلوندل وبرونشفيك[3].

ا: المظهر العلمي لهذه الحضارة المنفصل عن التصور الديني وهو ما يسمى بالعلمانية.

ولا نضيف جديدًا إلى ما نادى به بعض مفكرينا وعلمائنا المعاصرين إذا قلنا أن الفهم القائم على التحليل والدراسة هو أول الخطوات لمواجهة تأثير هذه الحضارة، لا لمقاومة تأثيرها العقائدي والأخلاقي فحسب. بل تجاوز ذلك والوصول لمرحلة تحديها[4] أيضًا. فإن ظاهرة التدهور والانحلال تعني الله:

(نرى أن سير التاريخ كأنما يستدرج العالم إلى فشل تجاربه وخيبة أمله في تجاربه العلمية والتكنولوجية الخ.. من ناحية ومن ناحية أخرى نمو العالم الإسلامي كمًّا وكيفًا.. ونرى في الخط الموازي كأنما الله يهيئ القاعدة التاريخية الاجتماعية لتحقيق الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف:9][5]. وكانت الآية نفسها قد تحدت وقت تنزلها الإمبراطوريتين والحضارتين القديمتين الكبيرتين؛ إمبراطورية وحضارة فارس من ناحية، وإمبراطورية وحضارة بيزنطة والبحر

---

(3) إميل برييه: اتجاهات الفلسفة المعاصرة ص10 .

(4) ونحن نعلم أن كتاب ألف بهذا المضمون أظهر فيه مؤلفه العقيدة الإسلامية في ثوب التحدي مستخدمًا مكتشفات العلم الحديث (ينظر كتاب وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى).

(5) مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ص31 .

الأبيض على العموم من ناحية أخرى، ولعل التاريخ يعيد نفسه، لأن النظرة الفاحصة لمشكلة الحضارة الغربية، تدلنا على أنها تعاني من نفس مشكلة الحضارات السابقة.

نبي: (إن مشكلة الحضارة الغربية كمشكلة الحضارات السابقة في التردي إلى عبادة وثن من صنع المجتمع، إنه تأليه الدولة الآن بين أربعة أخماس سكان العالم، لقد أدى هذا التأليه إلى انهيار أربع عشرة وربما ست عشرة حضارة سابقة من عشرين حضارة، وتأليه اليوم أشد إرهابًا لأنه تدعمه أيديولوجيات وتمكن له التكنولوجيا الحديثة سواء في وسائل الإعلام أو غيرها، إن التعصب للدولة الإقليمية قد تستر خلف الاشتراكية الوطنية في النازية والفاشية، والقول إن هزيمة النازية وتوأمها الفاشية في الحرب العالمية الثانية قد أدت إلى القضاء على النزعة الحربية موضع شك كبير وتعد هذه الأنظمة تأليهًا للدولة لأن النظم الدكتاتورية تعد صورة مماثلة لعبادة قيصر أو عبادة (يهوه) فضلًا عن أنها تعد غيرها شعوبًا بربرية، ولازال الفراغ الروحي مستبدًّا بالنفوس في الغرب فانفتحت الأبواب لتدخل شياطين التعصب للدولة وتستبدل بعبادة الله الواحد وثنًا واحدًا اسمه عبادة الدولة، كما تستبدل بالأديان أيديولوجيات من صنع المجتمع، إن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي تضطره إلى التماس فتات العزاء الديني إلى موائد لا تملك منها شيئًا، ولقد أراد بعض الفلاسفة إحلال أهداف بديلة عن الدين كفكرة دين الإنسانية لدى أوجست كونت، ولكنها بدت عقيدة باهتة ممسوخة ومن ثم لم تلق قبولًا، على أن عقول العالم مفتونة اليوم بأيديولوجية أشد خطرًا ممثلة في الماركسية، وهذه تناظر اليهودية إلى حد كبير، ليس لأن المبشر بها يهودي فحسب، بل لأنها أحلت عبادة الشيوعية محل الإله (يهوه) كما جعلت البروليتاريا مناظرة لشعب الله المختار، والخارجون على البروليتاريا كالشعوب الأممية لدى

اليهود، وتمنى الناس بفردوس على الأرض بديلًا عن نعيم الجنات، ولقد تكالبت الجماهير على مثل هذه الأيديولوجيات كبديل عن الدين، ولكن (ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان)، إن أزمة المجتمع الغربي هي في جوهرها أزمة روحية وليست مادية) [6].

وبهذا الفهم القائم على الدراسة والتحليل العلمي، يفهم المسلم المعاصر عقيدته، ويعي دوره، ويعرف هدفه. ففي الإسلام، الطاقة في الإيمان عقلية في أكثر أحوالها، تعتمد على الرشد والنقد والمحاكمة وقد أمدها هذا العصر العلمي الأخير بمدد لا يفنى من الحجج والبراهين[7]. وهكذا يصبح من السهل استعادة استقلالنا في مجال الأفكار، ولن يتحقق هذا الاستقلال إلا بتعديل جذري في مناهج دراسة الثقافة الأوروبية سواء في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ، لكي تنقذ أجيالنا من تشرب روح المدنية الغربية، وتبصرها بسعة الثقافة الإسلامية وغناها، فيشع في نفوسها الأمل من جديد بحسن مستقبلها[8].

وإذا أردنا المساهمة في تعديل منهج دراسة المشكلات الفلسفية المعاصرة، فلابد من الإلمام ببعض مباحث الفلسفة اليونانية من حيث الموضوعات التي تصدت لمعالجتها وأبرز اتجاهاتها لأن الحضارة الإغريقية هي السلف الحقيقي للحضارة الأوروبية الحديثة[9].

:

أ- بحث قضية اتصال هذه الفلسفة بالفكر الشرقي القديم.

ب- الفكر الديني في أهم مدارس هذه الفلسفة والموقف الإسلامي منها.

---

(6) توينبي: التاريخ يعيد نفسه (نقلًا عن د. أحمد صبحي/ فلسفة التاريخ ص**292**).

(7) عبدالمنعم خلاف: العقل المؤمن ص**4**.

(8) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص**74**.

(9) لمعي المطيعي: أرنولد توينبي ص**29** .

جـ- نظرة مقارنة بين العقيدة الدينية والفكر الفلسفي.

م:

سنبدأ بمناقشة القضية التي تحتل مكانها بين مؤرخي الفكر الإنساني وتتمثل في الإجابة على التساؤل الآتي:

أيهما أسبق؟ هل الفلسفة اليونانية هي الأصل في الفكر الإنساني بعامة؟ أم كانت مسبوقة بفكر شرقي قديم كان بدوره يحمل في ثناياه بقايا رسالات سماوية؟.

إننا نرى في إظهار الفكر الإغريقي وحده بمظهر الجدة والأصالة اتجاه يعبر عن انحياز عنصري غربي إذ ينكر على غيره من الأجناس أي دور في التراث الثقافي الإنساني والحضارات العالمية وهذا الاتجاه مع انحيازه يدل أيضًا على خطأ في النظر كما يقول «توينبي» الذي ينتمي بدوره إلى الحضارة عينها بسبب افتراضهم أن للحضارة نهرًا واحدًا وهو افتراض مبني في رأيه على أوهام ثلاثة:

لها: حب الذات.

: ركود الشرق في العصر الحالي.

الثالث: الظن بأن التقدم يلتزم خطًا مستقيمًا[10].

ولكن يبدو أنه آن الأوان لكي يخفف الغربي من استعلائه في ضوء الدراسات المتتابعة التي تضع الأمور في نصابها منها ما كشف عنه الأستاذ «ماسون أورسيل»، الذي يقرر أن الحضارة القديمة ولدت ونمت في الشرق وأنه في العصر الذي لم يكن فيه اليونان إلا جهلة وبرابرة كانت هناك حضارات لامعة زاهية على ضفاف النيل وفي سهول كلوديا ويؤيد هذا الرأي عالمان آخران هما جورج سارتون وول ديورانت.

ومهما يكن من أمر فإننا نود الإسهام في هذا البحث لنستطلع مدى صحة

---

(10) توينبي: مختصر دراسة التاريخ ص27.

رأي آخر مؤداه التقاء النظر الإنساني عند افتقاده لعنصر الوحي – على مظاهر الشرك والوثنية أيًّا كان جنسه أو بيئته، وأن المحاولات العقلية في مجال الخوض في عالم الغيب بلا سند من عون إلهي يتمثل في الوحي يؤدي إلى مسالك ومتاهات متضاربة، فمن الحقائق المقررة أن الكتب السماوية توضح أن الله سبحانه لما خلق أبا البشر، كرمه وعلمه حقائق الأشياء، وكان فيما علمه أنه هو خالق السموات والأرض وما فيهما، وأنه هو خالق الناس ورازقهم، وأنه هو مولاهم الذي تجب طاعته وعبادته، وأنه سيعيدهم إليه ويحاسبهم على ما فعلوا ثم أمره أن يورث علم هذه الحقيقة إلى ذريته ففعل، وظلت هذه العقيدة ميراث الإنسانية عن الإنسان الأول. نعم إن الناس لم يكونوا كلهم أوفياء لهذه الوصية المقدسة، بل إن أكثرهم وقع في الضلال والشرك، ولكن هذا التعليم لم يمح أثره محوًا تامًّا من البشرية، ولذلك ظلت فكرة الألوهية والعبادة بوجه عام مستمرة في جميع الشعوب، على أن العناية السماوية بهذا التعليم الروحي لم تقف به عند الإنسان الأول، بل مازالت تتعهد به الأمم في فترات تقصر أو تطول، وجعلت تذكرهم به على لسان سفراء الوحي من الأنبياء والمرسلين وإن كتب الديانات العظمى لتنتسب كلها إلى هذا المصدر السماوي[11].

ف نشأت؟

؟

دأب الإنسان منذ القدم على التأمل (في الكون المحيط به والتفكير في ملكوت السموات والأرض[12].

وإذا كان التفكير هو النظر العقلي في الأشياء، فقد اصطلح على تسمية

---

(11) د. دراز: الدين.

(12) د. بيصار: إثبات العقائد الإسلامية بين النصيين والعقليين ص**9**.

النظر العقلي بالفلسفة – فهي لون من ألوان التفكير – وموضوعها البحث عن المبادئ الأولى أو الوجود بما هو موجود لمحاولة الإجابة على الأسئلة التي تدور في الأذهان بالفطرة، فإن الإنسان مهما أمسكت بتلابيبه الشواغل الدنيوية، ومهما أخذت بنفسه آماله وأحلامه، أو أنهكته الهموم والأحزان، أو أفعمت قلبه ألوان الفرح والغبطة، فإنه لابد أن يجد في نفسه هذه الضرورة الملحة التي تدفعه على محاولة الإجابة على أسئلة عديدة، والتطلع إلى عالم الغيب، لمحاولة معرفة مسائله والبحث عن الأصول العظمى الأولى، عن الله سبحانه وصفاته، وكيف خلق العالم؟ وما حقيقة النبوة والوحي والرسالة؟ وما الحياة الآخرة؟ (وما الوجود؟ وما أصل الوجود؟ وما نهاية العالم وما غاية الإنسان من الحياة؟ وما الخير وما الشر؟ وما قيمة العقل البشري؟ وما حدوده؟.. الخ[13]).

من هنا ينبغي البدء بالبحث عن معنى الاصطلاح المنقول من اليونانية تحت اسم الفلسفة. يقول ابن أبي أصيبعة (**660**هـ) أن اسم الفلسفة يوناني (وهو دخيل في العربية، وهو على مذهب لسانهم فيلاسوفيا، ومعناه إيثار الحكمة وهو في لسانهم مركب من فيلا وسوفيا، ففيلا «الإيثار» وسوفيا «الحكمة».

أما «الفيلسوف» فإنه مشتق من الفلسفة، وهو مذهب لسانهم فيلوسوفوس فإن هذا التغيير هو كثير من الاشتقاقات عندهم ومعناه «المؤثر للحكمة»[14].

وقيل إن الفيلسوف الرياضي المشهور فيثاغورث قد استبدل بكلمتي «حكمة **Sophia** وحكيم **Philo** كلمتي محبة الحكمة و«محب الحكمة **Philo-Sophia** [15].

ولكن لا يكفي لدراسة الفلسفة أن نكتفي بتعريفها – أو بمعنى أدق

---

(13) د. أحمد الأهواني: في عالم الفلسفة ص**54**، **55** .

(14) مصطفى عبدالرازق: تمهيد ص**39** (نقلًا عن عيون الأنباء في طبقات الأطباء).

(15) د. زكريا إبراهيم مبادئ الفلسفة والأخلاق ص**9**.

بتعريفاتها المتباينة على ما سيأتي – فإن تاريخ الفلسفة يشكل حلقات مستمرة من الاختلاف حتى في تعريفها (فليس هناك اتفاق على شيء في الفلسفة)[16] وربما يعبر النزاع بين الفلاسفة عن قصور العقل البشري عن فهم ما فوق طوره – أي مسائل الغيبيات – كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون؛ لأن توضيحها من مهمة الرسالات السماوية التي تمد النفوس البشرية وتغذيها بالطمأنينة، حيث تقدم الحقائق اليقينية بواسطة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، على ما سيظهر لنا عند انتقالنا إلى دراسة هذه الموضوعات في التصور الإسلامي، إذ أنه ردًّا على (السؤالين العقيديين الرئيسيين اللذين تنازع واختلف بصددهما الفكر الفلسفي) ما هو مصدر الكون؟ وما مصيره؟ نعلم كيف أن الديانات السماوية بعد أن قدمت إجابة دقيقة عليهما، أسست على هذه الإجابة نظامًا كاملًا في العقيدة والعبادة[17].

تاريخها:

إذا قسمنا تاريخ الفكر الإنساني إلى أدوار ومراحل، فإننا نستطيع أو نقول إنه من الصعب العثور على نقطة بداية معروفة لتاريخ الفلسفة أو نشأتها، علمًا بأنه كان يراد بالفلسفة (في العصر القديم: العلم)[18] إلا أنه قد (جرت عادة مؤرخو الفلسفة من الغربيين على إرجاع نشأتها إلى الطبيعيين الأول)[19].

ولكن الدكتور سارطون ينقد هذا المنهج بشدة، ويرى أنه من الخطأ إهمال العلم الشرقي، ويقول بهذا المعنى (فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق) مقررًا أن العلم في بلاد الإغريق قد سبق بآلاف الجهود العلمية (في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرها من الأقاليم)، وبناء على هذه

---

(16) د. توفيق الطويل: إن الفلسفة ليس لها تعريف معتمد. أسس الفلسفة ص**86** .

(17) د. دراز: مدخل إلى القرآن ص**71**.

(18) كولبه: مدخل إلى الفلسفة ص**11**.

(19) د. زكريا إبراهيم – مشكلة الفلسفة ص**28**.

المقدمات يستخلص منها النتيجة التي يسوقها بحثه وهو أن العلم اليوناني (كان إحياء أكثر منه اختراعًا)[20].

وسنحاول في دراستنا أن نبحث في أصول الفكر الشرقي القديم السابق للفلسفة اليونانية ونعرض لأهم عناصره طبقًا لما أمكن للباحثين الحصول عليه من وثائق للعصور الموغلة في القدم.

ولئن كانت هذه المحاولة أقرب إلى دراسة تاريخ الأديان، إلا أنها تتصل في بعض الاتجاهات (بالنظر الإنساني.. قبل أن يطلق عليه ذلك الاصطلاح الفني وهو كلمة «فلسفة»)[21].

ولا يخطر على بالنا الغض من الدور الذي أداه اليونان للفكر الإنساني، ولكننا بمقارنته بالسابق واللاحق، نستطيع إدراجه في إحدى حلقات الدورات الحضارية الإنسانية التي ينبغي النظر إليها من وجهة نظر أوسع آفاقًا من النظرة التي يمليها التعصب لجنس معين أو قارة دون أخرى. ومن أمثلة هذا التعصب لما نستخلصه من عبارة برييه المتحمسة للفلسفة اليونانية التي يعتبرها إنتاجًا فكريًا لا مثيل له، وإنها من السمات الجوهرية التي تميز العبقرية الغربية[22]، ويمكن تفسير اهتمام برييه – وغيره من الباحثين الغربيين بالفلسفة اليونانية إلى أنه نوع من تعليل امتياز السلالات الأوربية بين جميع السلالات البشرية (العقاد في كتابه – التفكير فريضة إسلامية ص**65**).

وعلى الضد من هذا الاتجاه، فإننا نعثر في أفكار الدكتور سارطون على معارضة لهذا التعصب لكل ما هو غربي، فيصرح بأن المنهج الغربي في البحث في أصول الفكر الإنساني – أو ماضيه – وضع لنفسه حدودًا لا يتعداها متقيدًا بالفكرين العبري والإغريقي وحدهما – لأنهما المؤثران في

---

(20) سارطون: تاريخ العلم الكتاب الأول (الأصول الشرقية واليونان) ص**20**.

(21) د. محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص**9**.

(22) إميل برييه: اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ص**18**.

الفكر الغربي، إلا أنه لا ينبغي إهمال العلمين الهندي والصيني مثلًا على مالهما من أسبقية وأهميته، ثم يصرح في تواضع على أن الثقافة المستمدة من الأصلين الإغريقي والعبري ليست أحسن ثقافة، بل إن (الزعم بأنها بالضرورة أرقى الثقافات فيه خطأ وشر، وهذا الزعم هو المصدر الرئيسي للمتاعب الدولية في العالم)[23].

إن هناك من الحضارات ما هو أسبق من الحضارة اليونانية، كالحضارة المصرية حيث كان المصريون أرباب حضارة ممتدة أكثر من أربع آلاف سنة قبل الميلاد، وكان التقدم في العلوم والفنون عند قدماء المصريين ظاهرًا في مجال الرياضيات والفلك والطب والكيمياء، وقد نشأ هذا التقدم العلمي في أحضان الدين (وفي أبهاء المعابد وعلى أيدي الكهنة)[24].

وعلينا أن نذكر على سبيل المثال الفلاسفة الذين سافروا إلى مصر واتصلوا بالكهنة، آخذين عنهم آخر ما انتهى إليه العلم المصري، وهم طاليس وفيثاغورث وأفلاطون، حيث اقتبسوا هذا العلم ونقلوه إلى بلادهم تحت اسم (الفلسفة)[25].

حقًّا إنه لم يكن هناك نقل حرفي لنظرياتهم عن المدرسة المصرية، ولكن الناقدين المحدثين أثبتوا تبعية هؤلاء الفلاسفة للمصريين في الدين والأخلاق[26].

إن المنهج الذي اتبعه (بول ماسون) وتقيد فيه بوضع الفلسفة الغربية (وفي وسط مجموعة التفكير الإنساني باعتبار) أنه قابل للدراسة التاريخية)، قد ساعده على الوصول إلى إحدى النتائج الهامة، فأثبت أن مصدر الحضارات

---

(23) سارطون: تاريخ العلم – الكتاب الأول ص**23**.

(24) د. أهواني: المدارس الفلسفية ص**7**.

(25) ن . م ص**7**، **8** .

(26) بول ماسون: الفلسفة الشرقية ص**16**.

المشترك هو آسيا منذ ثلاثة آلاف أو ألفي سنة خلت قبل الميلاد[27].

من أجل ذلك لم يسع منكرو الفكر السابق للفلسفة اليونانية إلا الإقرار بالمعارف العامة المختلطة بالدين في موضوعات الألوهية والعالم الآخر والنفس عند أهل بابل وفي مصر والعبرانيين في معالجتها بالبداهة والخيال دون استدلال – إلى جانب الاعتراف بالفضل للفرس والهنود والصينيين الذين زاولوا النظر العقلي إلى حد بعيد، ولكن، كل ما عابهم في هذا النظر – عند صاحب هذا الرأي – هو قصره على تمحيص الدين وإصلاحه لأن مقصدهم الأول كان النجاة من الشر[28].

هذا فيما يتعلق بالمعارف العامة، فإذا شئنا التفصيل لأمكن العثور على أفكار محددة لم يكن للفلسفة اليونانية من دور فيها إلا نقلها، بل وربما تحويرها – على ما سيظهر لنا بعد قليل. ففكرة التوحيد مثلًا أتت عند الفلاسفة في زمن متأخر، وقد خرجت قبلها (من أفواه الأنبياء وهم موسى ومن خلفه عليهم السلام حوالي ألف عام قبل عصر سقراط وأفلاطون)[29] كما لا يغيب عن الأذهان مغزى اتفاق كل من التفكير الديني والفلسفي في تقسيم الوجود إلى عقل ومادة، وجسم وروح، والطبيعة وما بعد الطبيعة[30].

وفكرة الروح أيضًا، تلقاها الفلاسفة من عقائد دينية أسبق منهم، (آمن الإنسان بالإله الواحد من طريق العقيدة قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون، ولكنه لم يعرف «السبب الأول» من طريق الفلسفة إلا حوالي القرن الرابع قبل الميلاد، وكان جُل اعتماده في ذلك على الدين)[31].

وكذلك العلم – فقد كان يرتبط بالفلسفة ارتباطًا وثيقًا في العصر اليوناني

---

(27) برييه: مقدمة كتاب الفلسفة في الشرق ص**7** .

(28) يوسف كرم صفحة (د) تاريخ الفلسفة اليونانية ط **1953**م.

(29) ليون جونييه: المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص**30**.

(30) حسن سعيد الكرمي: الثنوية في التفكير ص**173** مجلة عالم الفكر يوليو، أغسطس، سبتمبر **72** .

(31) العقاد: الله ص**120**، **121** وينظر كتاب الدكتور توفيق الطويل أسس الفلسفة ص**22**.

القديم، أو بمعنى أخص – العصر الهليني، حيث أخذت العقلية الإغريقية الهندسة عن مصر، وهي تعتبر النموذج الأصلي للمعرفة عند أفلاطون[32]، والدارس لكتب أفلاطون يستطيع أن يتتبع المؤثرات الشرقية المختلفة من إيرانية وبابلية أيضًا إلى جانب المصرية.

ومن هذه الدراسات التفصيلية أمكن للدكتور سارطون أن يستخلص النتيجة المترتبة عليها وهي أن العلم اليوناني لم يكن بدءًا لحركة علمية، وإنما هو ذروة جهود علمية ترجع إلى ما قبله بألفي عام[33].

:

لا تعوزنا الأدلة التي ترجح أن الفكر الفلسفي اليوناني لم ينفرد بالأصالة والإبداع، وإنما هو امتداد – قد يتفق أو لا يتفق، في بعض أجزائه كلها، مع جذور أسبق منه، قد تتمثل في الفكر الديني، أو بقايا فكر ديني مختلط بعناصر النظر للعقل الإنساني، الذي كان دأبه تجريف الرسالات السماوية (إذ وجدت في الشرق حركة غنوصية (مصدرها كلمة Gnosis وإنكار الوحي وإشراقية إلحادية ممزوجة بعناصر يهودية. وكانت هذه الحركة تهدف إلى مسخ الأديان التي تعتمد على الوحي. وقد استمرت عبر القرون تظهر، بين حين وآخر، لتقاوم الديانات الموحى بها)[34].

إن الباحث في أصول هذا الفكر يعثر على سمات بارزة له، تتمثل في بعض العناصر المشتركة بينه وبين الفلسفة اليونانية، كالحوم حول فكرة الألوهية، والبحث فيما وراء الطبيعة.

---

(32) بول ماسون: الفلسفة في الشرق الأوسط ص**55**.

(33) سارطون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط ص**26**.

(34) د. محمود قاسم: دراسات في الفلسفة الإسلامية ص**20** .

■ **الهند:**

ففي الهند، يتضح من النصوص الدينية التي تمثل عقائد سكانها، أنها كانت تحوي أناشيد للإله الأكبر المسمى (فارونا) وهو عندهم رب السماء وحامي النظم الأخلاقية، وقد ارتقوا به إلى مستوى إله اليهود (يهوه).. وفيما يلي نقرأ بعض فقرات بما يسمونه بـ«الأنشودة الأولى»:

الحكمـــاء هـــم الأجيـــال فـــي طريـــق العظمـــة
عنـــه الـــذي جعـــل العـــالمين الواســـعين مشـــطورين
ودفـــع عقـــد الســـماء إلـــى العظمـــة والارتفـــاع
وكـــذلك كوكـــب النهـــار، وبســـط الأرض عريضـــة
مـــع نفســـي بـــذاتها، تأملـــت هـــذا الســـؤال:
متـــى ســـأكون مـــع فارونـــا متحـــدًا؟
متـــى – بقلـــب ســـعيد – أحظـــى برحمتـــه؟[1]

ويذكر المسعودي في كتابه (مروج الذهب) أن جماعة أهل العلم والنظر والبحث في العالم، المتتبعين أخباره منذ بدئه، أن الهند كانت منذ قديم الزمان (الغرة التي فيها الصلاح والحكمة)[2]، ويخص بالذكر الملك (البرهمن الأكبر) الذي ظهرت في أيامه الحكمة (وتقدمت العلماء، واستخرجوا الحديد من المعادن، وضربت في أيامه السيوف والخناجر.. وغرس في نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك، وأشار إلى المبدأ الأولى المعطى سائر الموجودات وجودها الفائض عليها).

إن الفكر الديني إذن كان معروفًا، والبحث عن الخالق جل شأنه كان مطروقًا، إلى جانب اهتمامه بالعلم والعمران أيضًا، فقد جمع الحكماء فكتبوا

---

(1) د. محمد جابر عبدالعال: في العقائد والأديان ص**92** .

(2) المسعودي: مروج الذهب ج**1** ص**62** .

له كتاب (السندهند) وتفسيره (دهر الدهور)[1].

ولئن كان المشهور عن البرهمن هذا كونه ملكًا، إلا أن احتمال كونه رسولًا إلى الهند كان احتمالًا قائمًا عند المؤرخين (فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام، وأنه رسول الله عز وجل إلى الهند، ومنهم من يقول – أنه كان ملكًا على حسب ما ذكرنا – وهذا أشهر)[2].

ويتفق الشهرستاني مع المسعودي فيرى أن الديانة البرهمية تنسب إلى رجل عظيم يقال له براهيم، إلا أن الدكتور وافي قد رجح نسبتها إلى الإله براهما، حيث تعد من أقدم الديانات في الأمم، ويرجع تاريخها إلى نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد)[3].

ومهما يكن من أمر، فإن الباحث يتوقف عند الآراء التي أوردها المسعودي على لسان سبعة من حكمائهم يتناظرون في موضوعات ما بعد الطبيعة، وهي تشير إلى أن أمثال هؤلاء الحكماء عالجوا المشاكل الفلسفية قبل فلاسفة اليونان.

وإذا تأملنا هذه المسائل، فإننا سرعان ما نجد أنها تتصل بأعمق المشكلات التي تشغل الفكر الإنساني إلى الآن، فقد كانوا يتناظرون في قصة العالم، ويتساءلون عن سره، ومن أين جئنا؟ وإلى أين ينتهي؟ وعن خالقنا – عز وجل ل: (أترى أحدًا من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الإدراك فظفر بالبغية واستراح إلى الثقة)؟

وربما يعني استحالة إدراك الأشياء الغائبة عن الحس والإدراك العقلي (لو تناهت حكمة البارئ عز وجل في أحد العقول كان ذلك نقصًا من حكمته، وكان الغرض غير مدرك، وكان التقصير مانعًا من الإدراك).

---

(1) نفس المصدر ص**62** .

(2) المصدر السابق ص**65** .

(3) د. وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام ص**156** .

وربما يشير إلى قصور العقل المخلوق عن إدراك ماهية خالقه جل شأنه.

قال الثالث (الواجب علينا أن نبتدئ بمعرفة أنفسنا التي هي أقرب الأشياء منا، ونحن أولى بها وهي أولى بنا من قبل أن نتفرغ إلى علم ما بعد منا).

وهو رأي أقرب إلى قول سقراط المشهور (اعرف نفسك) كما يفهم منه حضه على النظر في نفس الإنسان أولًا واتخاذها موضوعًا للدراسة بدلًا من البحث في ما وراء قدراته.

م الرابع (لو شاء وقوع أمر وقع وقوعًا احتاج فيه بنفسه).

وفي عبارته إشارة لمعالجة موضوع القضاء والقدر.

م الخامس الذي اتخذ موقف العجز عن الإجابة عن الموضوعات المطروحة للبحث، واهتدائه إلى الحاجة إلى شخص حكيم، يستمد الحكمة من مصدر آخر غير عقله لعجز العقل عن الخوض في المشكلات المثارة، فقال: (من هنا، وجب الاتصال بالعلماء الممدودين بالحكمة).

قال السادس ليشرح قصر حياة الإنسان في هذه الدنيا، وأنه لابد مغادرها، فالواجب على المرء المحب لسعادة نفسه أن لا يغفل عن ذلك، لاسيما إذا كان المقام الدائم في دنيانا ممتنعًا والخروج منها واجبًا وحتميًّا.

م السابع بهذه الحقيقة التي لخص فيها موقفه العاجز عن إيجاد الإجابة الشافية لكل ما تقدم. قال (أنا لا أدري ما تقولون، غير أني أخرجت إلى هذه الدنيا مضطرًا، وعشت فيها حائرًا، وأخرج منها مكرهًا)[1].

ومن المحتمل أن الحكماء السبعة الذين أشار إليهم المسعودي وهم من الهنود الذين ظهروا في عهد ملك (البرهمن) الذي – ظهرت في أيامه الحكمة، وهؤلاء السبعة هم المنظور إليهم، أي على رأس الحكماء، وكانوا قد اجتمعوا أثناء هذه المناظرة في (بيت الذهب).. ثم يختم قصة هؤلاء الحكماء

---

(1) مروج الذهب: جـ**1** ص**64**، **65** .

بقوله (فاختلف الهند ممن سلف وخلف في آراء هؤلاء السبعة وكل قد اقتدى بهم ويمم مذهبهم، ثم تفرعوا بعد ذلك في مذاهبهم، وتنازعوا في آرائهم، والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة)[1].

كما يشير إلى أن برهمن هذا قد جمع الحكماء لكتابة كتاب (السندهند) كما تقدم (ومنه فرعت الكتب ككتاب الأزجهير والمجسطي ومن المجسطي كتاب بطليموس ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات، وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندي.. الخ)[2].

إن مثل العبارة الأخيرة تشير إلى الأصول الهندية للعلم اليوناني.

ومن المحتمل أنهم الحكماء السبعة الذين أشار إليهم أفلاطون في محاورة (بروتاجوراس) مع ترديد أقوالهم على ألسنة أسماء يونانية[3].

والظاهر أن الرواية التي أوردها المسعودي (المتوفى **346**هـ) هي أقرب الروايات إلى الصحة لاسيما أنه يتقيد بمنهج المؤرخ فيصف كتابه الآنف الذكر بأنه (كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر)[4] ومعنى هذا أنه يتقيد بغرضه المحدد، وهو نقل الأخبار. ويمكن أن يوجه النقد في عدم دقة النقل إلى الشهرستاني أو القفطي أو الشهرزوري المتأخرين عن المسعودي.

وقد أشار الدكتور الأهواني إلى أن قصة الحكماء السبعة قد انتقلت إلى العرب مشوهة، قاصدًا ما رواه الشهرستاني والقفطي والشهرزوري حيث أطلقوا عليهم أسماء طاليس وأنكساجوراس وأنكسمانس، وأنبذ وقليس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون، دون أن يذكر على سبيل التحديد المسعودي،

---

(1) مروج الذهب: ج**1** ص**65** 2- ن . ص**62** .

(2) د. الاهواني فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ص**41** ط الحلبي **1954**م .

(3) ن . م ص**62** .

(4) مروج الذهب ج**1** ص**63** .

مع أن الأخير – كما رأينا – كان دقيقًا في نقل آرائهم، وقاطعًا في إيجاد الصلة بينهم وبين البرهمن ملك الهند، مع حرصه على ذكر واقعة اجتماعهم في (بيت الذهب)، بينما تذكر قصة اجتماعهم في محاورة (بروتاجوراس) الأفلاطونية أنهم اجتمعوا في (بيت كالياس أحد أغنياء أثينا)[1].

):

بالرغم من أن زرادشت قد نشأ ببلاد الهند أيضًا إلا أنه اضطر إلى الانتقال إلى بلاد الفرس للدعوة لدينه بعد أن أعرض قومه عنه ورفضوا دعوته. (ولم يحل عام **500**ق.م حتى كانت الزرادشتيه هي الديانة الأولى بين الإيرانيين كما قبلها أباطرة الفرس أيضًا)[2].

ويصف المسعودي زرادشت بأنه من أهل أذربيجان (وهو نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس، واسمه عند المجوس نسياه، وأتى زرادشت عندهم بالمعجزات الباهرات للعقول، وأخبر عن الكائنات من المغيبات قبل حدوثها في الكليات والجزئيات)[3].

ويوصف تارة بأنه أحد ملوك الفرس، وتارة أخرى بأنه نبي، وهناك فريق ثالث من الباحثين يذهب إلى أنه إبراهيم عليه السلام، وأنه أتى بالصحف التي أشار إليها القرآن الكريم مرجحين هذا الاحتمال بالتشابه بين حياة كليهما من حيث التأمل في الكواكب، والانتهاء إلى القطع بأنها ليست آلهة، والإلقاء في النار، ونهى قومهما عن عبادة الأوثان[4] إلا أن هذا الفريق من الباحثين لا يستند إلى سند يعتد به[5].

---

(1) فجر الفلسفة ص**42**.

(2) د. محمد جابر عبدالعال: في العقائد والأديان ص**164** .

(3) مروج الذهب ج**1** ص**194** .

(4) د. وافي: الأسفار.. ص**126**، **127** .

(5) ن . م ص**127** .

ومع هذا فإن احتمال اتصال هؤلاء الدعاة بأديان سابقة سيظل قائمًا (فإن هدى الله بلسان الرسل أقدم من اليونان وفلسفتهم، بل إني أرجح أن كثيرًا من فلسفة الأقدمين في مصر والصين والهند، هي بقايا نبوات نسيها التاريخ، فحشر أصحابها في عداد الفلسفة، ولعلهم من الرسل أو أتباع الرسل)[1].

ولعل النظرة الفاحصة لبعض تراتيل الزرادشتيه المسماة «الجاثات» المستقاة من كتاب (الياسنا) تدعم هذا الاحتمال، فالخير ليس إلا كائنًا إلاهيًّا أطلق عليه اسم مازدا (الذي كان اسمًا لأحد الآلهة القدامى أو (أهورا مازدا) ومعناه رب الحكمة، الذي رأى فيه أنه هو الله)[2].

جاء على لسان زرادشت في النصوص المرجح أصالتها، والتي وردت في تراتيل (الجاثات) قوله: «إلى أي أرض أفر؟ وإلى أي اتجاه يكون المهرب، إلى النبلاء والسادة وهم يقاطعونني، أم إلى الناس وهم غير راضين عني أم إلى حكام الأرض الخونة؟ كيف أبلغ رضاك يا أهورا مازدا؟»[3].

وفي نص آخر يفهم منه أنه نبي ينزل عليه الوحي، قال (عرفت أنك الواحد الإلهي يا مازدا أهورا)[4].

---

(1) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص**36** .

(2) د. محمد جابر عبدالقادر: في العقائد والأديان ص**165** .

(3) د. محمد جابر عبد القادر: في العقائد والأديان ص**166** .

(4) د. محمد جابر عبد القادر: في العقائد والأديان ص**166** .

ن (العراق):

أما عن العقائد المعروفة في أرض الرافدين (العراق) فقد عرفت هناك المعتقدات التي تدور حول إله سومير وإله بابل، ودون الخوض في تفاصيل هذه العقائد، يمكن التوقف فقط عند قصة الطوفان البابلية التي تشبه في بعض ملامحها قصة طوفان نوح عليه السلام الواردة في القرآن الكريم، وقد اكتشفت القصة البابلية على ألواح اكتشفها الأثري جورج سميث، وفيما يلي مقتطفات من هذه القصة:

وضعت على السفينة كل أهلي وأقاربي
وكل ماشية الحقل، ووحوش الحقل،
ورجال الحرف كلهم، وضعت على السفينة
في وقت معين كان شمش قد عينه (قائلًا)
حينما يرسل حاكم الظلام مطرًا ثقيلًا من الماء
حينئذ أدخل في السفينة وأغلق بابك،
جاء الوقت المحدد
أرسل حاكم الظلام أفواج المياه مطرًا ثقيلًا
تبين لي مظهر الجو
فخفت أن أرى الجو
دخلت السفينة وأغلقت بابي.. الخ[1].

ثم تقابلنا اختلافات بعد ذلك توضح خلط القصة بفكرة تعدد الآلهة، أو بمعنى آخر، فكرة الإشراك بالله الواحد، التي أخذت تتسرب إلى الأديان بواسطة معتنقيها أنفسهم.

---

(1) ن . م ص78، 79 .

نستخلص من دراستنا الموجزة لبعض أنماط الفكر الشرقي القديم أنه لا ينبغي حصر نطاق العقائد والأفكار في دائرة القالب الغربي وحده وهو ما اصطلح على تسميته بالفلسفة دون نظر إلى اختلاف الشعوب والأمم في طرق تفكيرها وأساليب معيشتها ونظرتها للقيم.

فإذا كانت الفلسفة بالمعنى التقليدي نابعة من تصورات المجتمعات الغربية وظروفها الثقافية ومراحل تطوراتها فلا يصح والحالة هذه أن توزن عقائد وثقافات وغيرها من الأمم بالميزان نفسه.

ونستطيع أن نضيف إلى ما سبق: مما يعيب الفكر الغربي بصفة عامة في نظرية لفلاسفة الشرق وحكمائه أمرين:

لهما: أن يتخذ حضارته محورًا ثابتًا من حوله يدور التاريخ متجاهلًا الحضارات الأخرى.

: وضعه الإطار التقليدي للفلسفة بمفهومها الغربي ثم المقارنة مع ألوان الفكر الإنساني الأخرى.

فهل من الضروري لاكتمال دائرة الفكر أن يتضمن طرقًا من علوم المنطق وما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة على النمط الذي صاغه فلاسفة اليونان، فإذا لم نعثر على هذا النمط من التفكير نزعنا عن صاحبه الأصالة والجدة؟.

على أننا نشارك الرأي القائل بأن الفلسفة – حتى لو تغاضينا عما تعبر عنه من أخطاء العقل وعثراته – لا تخرج عن كونها محاولة إنسانية لتفسير الحياة وتدبر الوجود وتأويل الواقع[1] ولذا فهي مهما حاولت لن تصيب الهدف الإنساني في تطلعه لمعرفة الغيب ومسائله، فضلًا عن عجزها لوضع أسلوب الحياة الأمثل لبني الإنسان.

---

(1) توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص**15** .

ق:

في عرض راسل للموقفين المعاصرين إزاء اليونان يرى أنهما يتخذان اتجاهين متعارضين؛

ل: وهو الموقف الذي أوشك أن يكون عامًا منذ عصر النهضة الأوروبي حتى العصور الحديثة جدًّا فينظر إلى اليونان باحترام يكاد يبلغ حد الخرافة إذ بلغوا مرتبة النبوغ الخارق للطبيعة البشرية.

: الموقف الذي أوحت به انتفاضات العلم فيعتبر سلطان القدماء كابوسًا جاثمًا ويذهب إلى أن من الأفضل اليوم أن ننسى معظم ما أضافوه إلى عالم الفكر.

ويظهر من ثنايا عرضه أنه يميل إلى الاتجاه الأول مع اعتدال ملحوظ إذ يرى أنه مما يمتع خيال الإنسان ويحد من شر الجمود الفكري أن نتعلم كيف نتصور الكون كما يصوره لنا أحد هذه الأنظمة الفلسفية، ولاشك أن راسل بتقسيمه هذا يقصد بني قومه ولا يمتد إلى غيرهم.

أما نحن فلنا موقف آخر نستمده من الاتجاه الإسلامي السلفي الذي نظر إليهم من خلال الأصول العقدية للإسلام، وسنرى الإمتاع الفكري الحقيقي من تصور الكون وخلق الإنسان وباقي مسائل الغيب التي أتى بها الوحي، ولن نعرض في هذه الحالة إلا للجانب الديني عند كبار فلاسفتهم – سقراط، أفلاطون، أرسطو – إلا بالقدر الذي يخدم نظرتنا المقارنة لنعرف إلى أي مدى وصلت أفكارهم الدينية وهل عرفوا الخلق والبعث والثواب والعقاب وغيرها من أمور الغيب؟

ثم نتبعها بشرح لأسباب المعارضة العنيفة من جانب نظار السلف، وبيان عوامل الانحراف والضلال والعقم في الفكر الإغريقي عما جاء به الرسل والأنبياء وهم الرواد الوحيدون لهداية البشرية للحق لاسيما في المجالين الميتافيزيقي والأخلاقي لأنهم سفراء الوحي.

1- سقراط:

من استقراء حياة سقراط وفلسفته نجدها تتميز بسمات خاصة أو ربما كان أظهرها إعلانه أن لديه رسالة يود أداءها وكان يقول أثناء محاكمته «أنا لا أستطيع أن ألزم الصمت لأن الله أراد لي أن أتكلم وإن كنت أعرف أنكم لا تؤمنون بذلك ولذا فإنه سخر من القصص الخرافية التي تحاك حول الآلهة التي شاعت بسبب أساطير «الإلياذة» و«الأوديسة» فإنها تصور هؤلاء الآلهة في صراع مستمر ودنياهم كدنيا الناس ومبادؤهم الخلقية مقلوبة رأسًا على عقب.

ورفض سقراط ما ترويه هذه الملاحم عن الآلهة وعن شهواتهم وخصوماتهم وحروبهم وقيمهم الخلقية لأنه إذا صدق ذلك انهار الدين من أساسه، والقارئ لمحاورة فيدون يقف على رأيه في خلود النفس فالنفس عنده كانت لها حياة سابقة على هذه الحياة البشرية والموت باب تلجه (أي تدخله) فتمضي من الأرض إلى السماء.

ن:

عندما انتقلت العقيدة الأورفية إلى اليونان، فكأنما أوشكت الديانة اليونانية أن تبدأ المرحلة التي كانت الديانات في الشرق قد بلغتها فعلًا، ويذكر راسل أنها تميزت بطابعين جديدين على اليونان فهي:

: قد نظرت إلى الوحي على أنه تصور السلطة الدينية.

ا: هي جمعيات منظمة على أساس أنها جماعات غير طبيعية كما استمد أفلاطون من فيثاغورث العناصر الأورفية فظهر الاتجاه الديني في فلسفته لإيمانه بالخلود واعتقاده بحياة أخرى.

ومن مظاهر الطابع الديني في فلسفته تلك النظرة الثنائية بين المثل والأشياء المحسوسة بين التعقل والإدراك الحسي وبين الروح والجسد، وإيمانه العميق بخلود الروح حيث كانت تعيش قبل هبوطها إلى هذا العالم في صحبة الآلهة.

ولأفلاطون براهين على الألوهية إذ يبرهن على وجود الله بأنه علة فاعلة،

وعلة محركة، وعلة غائية – ولذا سمي في دوائر الفلسفة في العصر الأوربي الوسيط بأفلاطون الإلهي، وظهر أثره بصورة واضحة جدًّا في الفلسفة المسيحية واللاهوت المسيحي حتى القرن الثالث عشر الميلادي، إذ كانت أكثر اصطباغًا بالأفلاطونية منها بالأرسطية كما يذهب إلى ذلك أكثر مؤرخو الفلسفة.

:

وجاء أرسطو بجهوده العلمية في مجال الطبيعة والحيوان والنفس والمنطق والرياضيات، والأخلاق والسياسة حتى سمي بالمعلم الأول ولقيت فلسفته قبولًا تامًّا في دوائر الفكر – أو الدين المسيحي – إلى درجة تجعله يوشك أن يكون سلطة ثانية إلى جانب سلطة الكنيسة ولكنه عجز عن حل أزمة الفكر اليوناني المتصل بعقيدة الألوهية وسقط هذا العقل الممتاز في هاوية التخيلات والأوهام إذ قدم تفسيرات في العلم الإلهي إذا قورنت بجهوده في الميادين العلمية الأخرى، ظهرت وكأنها من نتاج مفكر آخر لا يمت إلى أرسطو بصلة، وربما من أسباب أخطائه في حديثه عن الألوهية هي انقطاع صلته ببقايا الرسالات التي ربما انتفع بها كل من سقراط وأفلاطون حيث استمدا أفكارهما من بقايا دين لقمان الحكيم بأرض الشام كما يذكر ابن تيمية.

ولعل أبرز أخطائه في حديثه عن الله أنه لم يتصوره خالقًا للكون، بل هو فقط محرك له لا يتحرك كما ينفي عنه علم الكون، إذ أن موضوع العقل الأسمى يجب أن يكون الموجود الأسمى فعلم الله إذًا عنده لا يتعلق إلا بذاته ووظيفته هي التأمل في ذاته ومشاهدة نفسه.

ثم امتد أثر أرسطو إلى أن احتضنه القديس توما الإكويني – ت **1274**م – وهو أكبر من وفقوا بين الفلسفة المشائية وقواعد العقيدة المسيحية فاتخذته الكنيسة الكاثوليكية مذهبها الرسمي حتى اليوم[1].

---

(1) توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص**283** .

أما تأثيره في الفكر الإسلامي فلم يتعد دائرة الفلاسفة التقليديين ولذا فقد حوصر من جانب علماء أهل السنة والجماعة، وليس تكفير الغزالي للفلاسفة بخافٍ عنا، وفي دوائر السلف خاصة نبذت الفلسفة ولم يعترف بها.

يقول ابن تيمية في وصفه لأحد أصحاب التلفيق بين الشريعة والفكر الإغريقي وهو الكندي (وكان يعقوب بن إسحق الكندي فيلسوف الإسلامي في وقته، أعني الفيلسوف الذي في الإسلام، وإلا فليس الفلاسفة من المسلمين)[2].

ولم يكن هذا الحكم وليد تعصب كما يظن البعض، ولكنه صادر عن أفق رحب فاهم للأصول الإسلامية ومستوعب أيضًا للتصورات الغريبة عنها لاسيما عند معلمهم الأول وبمنهج المقارنة تظهر مزية الإسلام كأشد ما تكون.

يقول الأستاذ أبوالحسن الندوي: (وقد تأثرت فلسفتنا الإسلامية – مع الأسف – التي نشأت لمحاربة الفلسفة اليونانية الملحدة بنفس نزعتها، وهي البحث التفصيلي في قضايا ليس عند الإنسان مبادئها ومقدماتها، وتسربت إليها هذه الروح الفلسفية العاتية التي تتعدى حدودها ولا تعرف قدرها، فجاءت بالتدقيق والتقشير في مسائل الذات وتأويل الأسماء والصفات وتناولوه بالتشريح والتجزئة والتحليل كأنهم في معمل كيماوي، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا)[3].

في:

انتهينا من الإلمام بالجانب الديني في الفكر الإغريقي وظهر لنا أن أساطين فلاسفتهم لم يصلوا إلى يقين في العلم الإلهي فهم يتكلمون فيه كما يرى ابن

---

(2) ابن تيمية: فتاوى جـ**9** ص**186** .

(3) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص**22** ط المختار الإسلامي **1383**م .

تيمية بالأحرى والأخلق أي: ليس معهم إلا الظن ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم:28] فإذا تتبعنا مسار التراث اليوناني وجدناه متجهًا صوب العصر الأوروبي الوسيط بعد انتشار المسيحية حيث استخدمت الفلسفة كأداة توفيق بين العقل والنقل، فكان القديس أوغسطين (ت 340م) يرى أن الإيمان يسبق التعقل، ويساعد عليه فالإيمان في رأيه يجعل العقل أقدر على كشف الحقيقة وأكثر تهيؤًا لقبولها واعتبر مؤسسًا للأفلاطونية المسيحية.

وأما القديس توما الإكويني – 1274م – فإنه يرى أن العقل وظيفته تهيئة النظر فيقودنا إلى الإيمان وبذلك أدار التفكير الفلسفي واللاهوتي حول أرسطو مؤسسًا بذلك الأرسطية المسيحية معارضًا المذهب الأوغسطيني[4].

واحتوت الفلسفة اليونانية بهذين التيارين الديانة المسيحية، فأثارت هذه الظاهرة مفكرًا من أبرز رجال الغرب المعاصرين ونعني به «أرنولد توينبي» الذي شخص هذا الداء بمشرط فيلسوف التاريخ المؤمن بدينه المشفق عليه من تيار الفلسفة، فذهب إلى أن التأثير المستمر لروح المسيحية لم يفقد سيطرته بعد على قلوب الرجال والنساء في الغرب، وذلك رغمًا من أن عقولهم قد تعرض عن العقيدة حيث ترجمت حقائق المسيحية الثابتة إلى اللغة الفانية «لغة الفلسفة الهلينية الوثنية»[5].

ب:

من الملاحظ أن إخفاق الفلاسفة لاسيما في مجال العلم الإلهي يرجع أول ما يرجع إلى جهلهم أو إنكارهم للوحي الذي كان يتوالى على البشر ليمدهم

---

(4) لويس غردية، قنواتي:
(فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية) جـ2 ص119 ، 147 ط دار العلم للملايين – بيروت 1967م .

(5) موجز تاريخ العالم جـ4 ص179 .

بحقائق عالم الغيب ويشبع تطلعهم الفطري للمعرفة ويأخذ بيدهم إلى طريق السعادة في الدارين وقد أخبر القرآن في غير موضع بأن الرسالة عمت بني آدم ولذلك فإن المردد لأقوال الفلاسفة لا يعظمها في أول الأمر أو مطلقًا إلا من لم يعرف حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ ولم يقارن بين أباطيل الفلسفة وما تكلم عليه به القرآن الحكيم فإن في القرآن من الأخبار عن الغيب من الملائكة والجن والجنة والنار وغيرها ما لا يخفى على أحد بل الرسول إنما بعث ليخبرنا بالغيب والمؤمن من آمن بالغيب ولنشترك في التساؤل مع شيخ الإسلام: أنترك الكتب ونلجأ إلى أمثال أرسطو وذويه ومن أخذ برأيه وهؤلاء يرددون دعاوى مجردة بلا نقل صحيح ولا عقل صريح؟ .

وسنمضي قدمًا لندعم سلامة موقفنا بالأدلة والبراهين المشتملة على النقل الصحيح والعقل الصريح.

فقد ثبت عقم الفلسفة في أهم مباحثها وهو العلم الإلهي فالحق فيه قليل وغالبه علم بأحكام ذهنية لا حقائق خارجية إذ ينقصه الإيمان بالله واليوم الآخر وأحسن الفلاسفة حالًا من يقر بمعاد الأرواح دون الأجساد وإذا نظرنا إلى القسم النظري فإن أصح ما فيه العلوم الحسابية والرياضية وينقسم العلم العملي بدوره إلى الأخلاق وتدبير المنزل والسياسة وهذه العلوم نافعة وهي التي تميز القوم عن جهال بني آدم الذين ليس لهم كتاب منزل ولا نبي مرسل ففيها منفعة صلاح الدنيا وعمارتها ما هو داخل في ضمن ما جاءت به الرسل وفيها أيضًا من قول الحق واتباعه والأمر بالعدل والنهي عن الفساد ما هو داخل ضمن ما جاء به الرسل.

نفهم من هذا أن التصورات البشرية أيًّا كان مصدرها تتسم بالقصور وتعجز عن التوجيه الكامل لشئون الحياة والأحياء سواء في العقيدة أو السلوك أو الأنظمة الاجتماعية إذ لا تكتمل هذه كلها إلا بالدين ونحن نخص الإسلام بالذكر وهو المنهج المبرأ من عوامل العجز البشري لأنه من لدن عليم خبير

قوي قدير وأنه المنهج الشامل المتكامل المنبثق عن حقائق كونية أصيلة مستقلة الجذور.

:

يكاد يتفق مؤرخو الفلسفة على أن العلم لم ينهض في مطلع العصر الأوروبي الحديث إلا بعد الثورة المزدوجة على السلطة العلمية ممثلة في المنطق الأرسطي والسلطة الدينية ممثلة في رجال الكنيسة.

وعلى العكس من ذلك لم تقم الحضارة الإسلامية إلا بتحرر المسلمين من هذه القيود بفضل القرآن الذي وجه علماءهم ومفكريهم فقد فتح آفاقهم للنظر في الكون والأنفس والتاريخ وأمدهم بتقريرات كاملة عن الخالق جل شأنه وأوضح لهم منشأ الكون وبين لهم أصل الإنسان ومصيره كما حثهم على النهوض بأداء الرسالة التي نيطت ببني آدم ليصيروا جديرين بخلافة الله عز وجل في الأرض وفي هذه النقطة يكشف لنا محمد أقبال عن سبق المسلمين لمعرفة المنهج التجريبي بفضل القرآن الكريم مقارنًا بينه وبين روح ثقافة اليونان فإن فلسفة سقراط في رأيه مخالفة لروح القرآن لأن سقراط يقصر فلسفته على الإنسان بينما يحض القرآن الإنسان على النظر ويحثه على تأمل المخلوقات كلها من أضعفها وأضألها حجمًا كالنمل والعنكبوت والذباب مثلًا إلى الرياح المتعاقبة وفي تعاقب الليل والنهار والسحب والسماء ذات النجوم والكواكب السابحة في قضاء لا يتناهى كما يتضح أيضًا مخالفة فلسفة أفلاطون القائمة على القدح في الإدراك الحسي للمنهج القرآني لأن القرآن يعتبر السمع والبصر من أجلّ نعم الله على عباده ويصرح بأن الله جل وعلا سوف يسألهما في الآخرة عما فعلا في الحياة الدنيا.

ويستخلص فيلسوفنا بمنهجه المقارن نتيجة هامة إذ يقرر أن روح القرآن تتعارض في جوهرها مع تعاليم الفلسفة القديمة أو أي تصور فلسفي مشابه ثم يستطرد فيقول «وقد نجم عن إدراكهم هذا نوع من الثورة الفكرية لم يدرك أثرها الكامل إلى يومنا هذا».

وبيان ذلك على وجه التفصيل والتحليل إذا ما أخذنا في المقارنة بين روح القرآن وطبيعة ومنهج فلاسفة اليونان نلاحظ أن هذه الفلسفة امتازت بالتفكير المجرد وإغفال الواقع المحسوس فضلًا عن المناهج القاصرة التي اتبعها أساطين اليونان مثل سقراط وأفلاطون كما ذكرنا فإذا درسنا القرآن رأينا روحه تتجلى في النظرة الواقعية وتتعدد في مصادر المعرفة التي يمضي الإنسان على الاغتراف من معينها وهي على سبيل التحديد الأنفس والآفاق «أو الطبيعة» والتاريخ(6) للعبرة فهو يرى آيات الحق في الشمس والقمر وامتداد الظل واختلاف الليل والنهار واختلاف الألسنة والألوان وتداول الأيام بين الناس ويحث المسلم على الاعتبار بهذه الآيات ويصف الغافل عنها بأنه أصم وأعمى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا.

ونميل إلى الاعتقاد أنه استطاع التوصل إلى هذه النتيجة بعد قراءاته لعلماء المسلمين من السلف الواقفين بالمرصاد للفلسفة الإغريقية والمتأثرين بها من مفكري الإسلام ونخص بالذكر ابن تيمية حيث سمحت له قراءاته لبعض مؤلفاته أن ينوه بالدور الكبير الذي قام به في نقض المنطق الأرسطي نقضًا علميًّا منظمًا مشيرًا إلى كتابة «نقض المنطق» إذ بين فيه أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين وهكذا قام المنهج التجريبي القائل بأن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله لا التفكير النظري المجرد.

ويبدو أنه لم يقرأ الكتاب الأهم في نقد ابن تيمية لمنطق أرسطو وهو كتاب «الرد على المنطقيين» ولكنه على أية حال وجه الأنظار إلى خطأ الزعم القائل بأن أوروبا هي التي استحدثت المنهج التجريبي.

كذلك «أثبت إقبال أن مولد الإسلام هو في حقيقته مولد العقل الاستدلالي مستندًا إلى أن النبوة بلغت كمالها الأخير ببعث الرسول ﷺ فاختتمت النبوة

(6) مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ [إبراهيم:5] .

ويفسر ذلك بأن الإنسان ينبغي أن يترك ليعتمد على وسائله هو لتحصيل كمال معرفته لنفسه بعد أن اكتمل له التصور الكامل عن أصله ومصيره وغايته فيقول «إن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام وإصراره على النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين كمصادر المعرفة الإنسانية كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة[7].

وهكذا لم يشتت رواد الحضارة الإسلامية جهودهم – اللهم إلا القلة من الفلاسفة الذين لا يعبرون عن هذه الحضارة – في البحث فيما وراء الطبيعة لأن الكلمة النهائية قد قيلت بالوحي الإلهي فعلى البشرية أن تنصت وتذعن وتصرف جهودها لأداء دورها وتحقيق ما ينفعها في الحال والمآل.

بقيت كلمة أخيرة بصدد آراء إقبال تتلخص في حديثه عن الصلاة باعتبارها طريقة خاصة خفيت على الفلاسفة عندما تطرقوا إلى نظرية المعرفة فالصلاة في الحقيقة تسمو عن مجرد الإدراك العقلي إذ يعقبها تأثيرات عضوية ذات طبيعة خاصة فهي في حقيقتها تجربة إنسانية حقيقية تزيد كثيرًا عن التأمل المجرد. صحيح أنها كالتأمل أيضًا لأنها فعل من أفعال التمثل ولكن التمثل في حالة الصلاة يتجمع مترابطًا فتحصل بذلك على قوة لا يعرفها التفكير المجرد والصلاة كما نعلم هي من آخر وصايا نبي الإسلام ﷺ في قوله: «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

وبعد، هذا ما حدث للفكر الفلسفي فلننظر الآن في العقيدة في الإسلام إذ نجعل العقيدة بديلًا للفلسفة، ونتخذ من الوحي الإلهي سبيلًا للنجاة ونأخذ بالحكمة منهجًا لدعوة البشرية إلى طريق الحق.

---

(7) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام ص**144**.

العقيدة في الإسلام

معنى العقيدة أنها الأفكار الأساسية التي يجب على المؤمن بالدين أن يصدقها ويقبلها أي يعتقدها واللفظ مستحدث في العصر العباسي ولكن يجوز استخدامه لأن شيوخ السلف لم ينهوا عنه وهو يعني فصل العنصر العقلي وهو مضمون العقيدة عن العنصر النفسي، مع أن كليهما مجموع لفظ الإيمان يقول ابن تيمية: «والكلمة أصل العقيدة فإن الاعتقاد هو الكلمة التي يعتقدها[8] المرء فإذا ارتضينا هذا التعريف فإننا نرى أن العقيدة الصحيحة هي التي تحدد للإنسان مكانه الصحيح في الكون، وتسدد خطاه في الزمان والمكان حيث تحدد له وجهته الصائبة وترسم له طريقه المستقيم فيستقيم وجدانه وسلوكه ومشاعره وأعماله ومبادؤه وواقعه ويصبح كله كما ينبغي أن يكون وحدة متماسكة ومتكاملة متجهة الاتجاه الصحيح.

من هذا التعريف اتضح لنا أن الافتراض الزائف للثنائية بين العقل والإيمان لا يوجد في الإسلام وإنما هو وليد ظروف شهدها الصراع بين العقل والدين المسيحي كما رأينا وكانت النتيجة كما يصفها «رامبورانت»[9] فلسفة دينية لا هي فلسفة محضة ولا هي دين خالص ومثل هذا الإقرار يقدم لنا تعليل الموقف المعارض للفلسفة الذي ظهر في دائرة علماء السلف حيث اجتزأنا – مقتطفات منها عند كل من شيخ الإسلام ابن تيمية في القرن السابع والثامن الهجري، ومحمد إقبال في العصر الحديث، فدل على وحدة النتائج بالرغم من اختلاف العصرين، وهذا بدوره دليل وبرهان، على أن الاتفاق في المنهج يؤدي إلى نتائج واحدة.

---

(8) ابن تيمية: نقض المنطق ص**28**.

(9) موجز تاريخ العالم جـ**4** ص**179**م.

ام:

يصف الدكتور محمد حسين مكانة عالم الغيب في الإسلام بقوله:

(والإيمان بالغيب والتسليم بحدود الله هو الأساس الأول للدين لأن الدين إنما يوحد الجماعات عن طريق هذه المسلمات التي يتفقون عليها لا محالة، رغم اختلافهم في الأذواق، وتفاوتهم في الملكات، وفي أنماط الفكر ومناهجه، ونزعات النفوس وأهدافها، ولأن معرفة الإنسان محدودة بحدود كثيرة. هي محدودة بحكم طاقة الحواس التي يستمد منها المعرفة وهي محدودة بحكم الحيز الزماني الضئيل الذي يعيش فيه ويدركه، لا يعرف ما قبله ولا يعرف ما بعده. وهي محدودة بحكم الحيز المكاني التافه الذي يحيط به، والذي لا يعرف ما وراءه في آفاق الفضاء، بل في أعماق الأرض والبحار إلا حدسًا ورجمًا بالغيب)[10].

وقد لخصنا فيما تقدم إجمالي النقد الموجه لثمرات الفكر اليوناني استنادًا إلى الأصول الإسلامية حيث اتضح لنا قصور المنهج الفلسفي عن الوصول للحقيقة لاسيما في العلم الإلهي ولئن عالج بعض النظم والتوجيهات الإنسانية كالرياسة والأخلاق ومثلًا فإن الدارس للإسلام يعرف بأدنى جهد أنه يحتوي على ما هو أجل وأعظم.

وتفصيلًا لما أجملناه عند فلاسفة الغرب فإننا سنحاول عرض بعض ما أخبر به الرسل إذ أن مما اتفق عليه علماء المسلمين أنه يلزم الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتب والبعث والقدر وغير ذلك من صفات الله وصفات اليوم الآخر كالصراط والميزان والجنة والنار ونحو ذلك.

---

(10) د. محمد حسين ص**13**، **14** اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر دار الإرشاد بيروت **1391**هـ - **1971**م.

وتظهر المعجزة القرآنية ضمن ما تظهر في توضيح هذه الحقائق التي لم يكن العرب على علم بها، وقد تضمنت حقائق مخالفة للأساطير التي كانوا يعتقدونها، وفرق بين الحقائق الغيبية والأساطير المنبثقة من تصورات بيئية يتلقفها المجتمع عن أسلافه جيلًا بعد جيل.

وكمقدمة للموضوع علينا أولًا الحديث عن الحكمة الإسلامية لبيان اختلافها الجذري عن الفكر الفلسفي مصدرًا ومنهجًا – فما هي الحكمة في الإسلام؟

تعددت الآيات القرآنية التي تناولت الحكمة منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:**129**]، وقوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:**113**].

إلى غيرها من الآيات التي نستطيع من استقرائها أن نستدل على صلة الكتاب بالحكمة والكتاب هو القرآن والحكمة هي كما يذكر القرطبي المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم الذي هو منحة ونور من الله الحكمة القضاء خاصة، ويشرح القرطبي ذلك فيقول والمعنى متقارب ونسب التعليم إلى النبي ﷺ من حيث هو يعطي الأمور التي ينظر فيها ويعلم طريق النظر بما يلقي إليه من الوحي.

ويكاد يتفق أغلب علماء المسلمين على أن الحكمة هي السنة أو أنها معرفة الحق وقوله والعمل به وفي آية أخرى ذكرت الحكمة وحدها في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة:**269**].

وهكذا نرى أن مصدر الحكمة إلهي وجاء ذكرها في القرآن الكريم مناطة بالرسل فهي ليست مستندة إلى تأمل عقلي مجرد وليست ضربًا من التخمين وأعمال الرأي بلا أساس أو مجرد خواطر إنسانية بلا ضوابط ولكنها فهم للكتاب وعمل به وهي بهذا التفسير تجمع بين الشرع والعقل فالعقل أن يجتهد ولكن بشرط احتكامه إلى أصول الشرع ولذا يدلنا الأصفهاني على طريقة الاستدلال على الحكمة فيرى أن الاهتداء للعلماء والحكماء هو توفيق الله تعالى العبد ليطلب بسعيه وجهده الحكمة فيتحصل له منها بقدر ما يتحمل من المشقة وقد أطلقت الحكمة أيضًا على الأخلاق وهذا ما أورده ابن كثير

في تفسيره بعد آية رقم **39** من سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ ويفسرها ابن كثير كما رأينا بأنها الأخلاق الجميلة ويستطرد فيوضح أن المراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه صلوات الله عليه معصوم ونفهم من ذلك أن الأمة خاصة والبشرية عامة في حاجة إلى أن تهتدي إلى سلوك الأخلاق القويمة كحاجتها لمعرفة العقيدة الصحيحة ونصل من هذا إلى تعريف جامع لأحد العلماء المعاصرين حيث يرى أنها هي نور العلم والبصيرة وملكة التدبر والتأمل في الكتاب والفقه في الدين ومعرفة أصوله وأسراره[11].

مصدرها.

وجاءت الحكمة أيضًا كمنهج للإقناع والدعوة فإن الإسلام فضلًا عن ميزته الأولى الكامنة في مصدره الإلهي فإنه قائم في أصوله وفروعه على الأدلة والبراهين وله أسسه القويمة التي تدعمه في وجه أصحاب الجدل والحجاج ولذا فقد خط لنا القرآن المنهج في مخاطبة صنوف البشر في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:**125**]، وهذه الوسائل تقابل في رأي ابن تيمية الأقيسة البرهانية والخطابية والجدلية بل هي أكمل منها من وجوه كثيرة فهي في القرآن تجمع بين العلم والعمل على أكمل وجه من وجوه كثيرة فإذا قسمنا المخاطبين طبقًا للمناهج التي وضعتها الآية لوجدنا أن منهم من هو صاحب حكمة أي يعترف بالحق ويتبعه أما الصنف الذي يعترف بالحق ولكن لا يعمل به فهو المحتاج للموعظة الحسنة والصنف الأخير يحتاج إلى الجدل بالتي هي أحسن لأن الجدل عادة يسبب الغضب والمشاحنة فإذا كان بالتي هي أحسن زال ضرره وبقيت منفعته على الوجه الأكمل[12].

---

(11) المودودي: الإسلام وتحديات العصر ص**147**.

(12) ابن تيمية: فتاوى جـ**2** ص**44**، **45**، المودودي: الإسلام وتحديات العصر.

الرسل والأنبياء

وها نحن أولاء أمام المكلفين بإبلاغ الكتب السماوية وتعليم الناس الحكمة ونعني بهم الرسل والأنبياء.

ولموضوع النبوات جوانب متعددة لن تخوض فيها إلا بقدر ما يتصل بإثبات أفضليتهم، ودورهم في هداية المجتمعات الإنسانية على مدى التاريخ مع حاجة البشرية الماسة للاهتداء بالنبوة في كل العصور والأزمنة وظهور حاجتها الآن بصور أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى، ولا حجة لأحد في الجهل بهم، لأن الباحث عن الحقيقة سيعثر على آثارهم فقد مضى الرسل والأنبياء عليهم السلام، وظلت معجزاتهم ماثلة أمامنا، والأدلة على رسالاتهم ووجودهم باقية.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:9، 10].

وقال عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:47].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:7].

إننا أمام أحوال المجتمعات المعاصرة المماثلة للعيان لا يسعنا إلا التأكيد على الحاجة الملحة للاهتداء بسبيل النبوة من جديد حيث ضلت البشرية طريقها حينما ظنت واهمة أنها تستطيع أن تستبدل بالرسل العلماء والفلاسفة والأدباء والمصلحين الاجتماعيين وقادة السياسة والحروب وغيرهم ممن حادوا عن الطريق المستقيم.

وفي هذا الصدد يرى الأستاذ أبوالحسن الندوي أن الجيل البشري لم يزل في تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء أو تجربة المجربين والمجازفين من المشرعين والحكماء وقد عبثوا بأبناء جنسهم وعقليتهم ومدنيتهم فجر كل ذلك على الإنسانية البائسة شقاء طويلًا وويلًا عظيمًا[13].

ويرجع ذلك أول ما يرجع إلى الجهل بقوانين العلاقات البشرية فقد ثبت العجز عن تحقيق السعادة بالرغم من التقدم الحضاري المادي الآخذ بالألباب وفي تحليل الأسباب يذكر أحد العلماء المتخصصين في الدراسات الطبية والنفسية المعاصرين وهو أليكس كارليل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» فيذكر عوامل – أو أسبابًا - متعددة نقتبس منها ما نراه ضروريًا لتوجيه الأنظار إلى مدى الوهم الذي نعيش فيه من جراء الظن بأن التقدم العلمي في مجال العلوم التجريبية كفيل بتحقيق السعادة التي يبحث عنها بنو البشر ويستند باحثنا على دراساته وأبحاثه العلمية وتجاربه الطويلة مع مرضاه التي استغرقت سنين طويلة فيخرج إلينا بنتائج ذات بال، منها أن الأطباء والمعلمين وعلماء الصحة لم يبلغوا هدفهم لأنهم يعالجون خططًا تشتمل على جزء فقط من الحقيقة الإنسانية ويرجع ذلك إلى تعقد ظاهرة الحياة نفسها ومن ثم حققت علوم الجماد تقدمًا عظيمًا بينما بقيت علوم البشر في حالة بدائية وحتى العلوم التي اصطلح بتسميتها العلوم الإنسانية كالاجتماع والاقتصاد فهي علوم افتراضية تخمينية ولم تفلح الأنظمة التي أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم إلا في تقديم مزيد من الضحايا دون تحقيق الأهداف التي رسموها في خيالاتهم فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس تنطبق فقط على الرجال الجامدين أي على تشخيص نظري للإنسان دون معرفة حقيقته

(13) الندوي: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص**10**.

وجوهره ويخلص عالمنا من أحد أبحاثه إلى نتيجة تدعو إلى التأمل والنظر إذ يعترف بقوله:

إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيًا وعقليًا فالجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتي ستكون دعوتها إلى البربرية والهمجية أسرع عودة من غيرها إليها ويرى أن العلاج الوحيد الجائز لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقًا بأنفسنا وهنا يظهر أهمية دور الرسل والأنبياء فنتساءل بدورنا ما الذي يمنع بني الإنسان من الانقياد للرواد الوحيدين المختصين بفهم أعماق النفس البشرية وهم أطباء النفوس، ونعني بهم الرسل بعامة وخاتمهم خاصة؟

والتعريف بالنبي يتناول مهمته ودوره والفرق بينه وبين الرسول فالنبي سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة عللهم في معاشهم ومعادهم.

(ورسوله) في لسان الشرع عبارة عن إنسان أنزل عليه شريعة من عند الله بطريق الوحي، فإذا أمر بتبليغها إلى الغير سمي رسولًا. والرسول من بعثه الله بشريعة مجردة يدعو الناس إليها والنبي أعم.

والنبي من النبوة وهي الرفعة.. أي المنبي عن الله بما تسكن إليه العقول الزاكية[14].

ا:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:49-50].

(14) الصنعاني: سبل السلام جـ1 ص9 ط الحلبي 1379هـ 1960م.

والأدلة كثيرة على صدق النبوة وقد سجل التاريخ بطريق التوازن أخبار الرسل والأنبياء في كل الأزمنة والعصور وتنوعت المصادر والوثائق عن أدوارهم ومهامهم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن نقلة أخبار الأنبياء وأتباعهم أكثر عددًا من نقلة أخبار ملك الفرس والعرب في جاهليتها ونكتفي من بين المؤرخين المعاصرين بمؤرخ واحد هو ويلز الذي استند إلى الكتب المعروفة بأسفار الأنبياء التي تكاد تكون عنده أقدم الشواهد وأفضل الدلائل على ظهور صنف جديد في شئون الإنسانية هي زعامة الأنبياء وبتأريخه لسلطان الأنبياء المتزايد لم يقتصر على الشعب اليهودي بل مما أثار دهشة أن تعدد الأنبياء كان شيئًا يحدث في تلك الأيام في كل أرجاء الشرق فانتشرت بواسطتهم عقيدة وجود إله واحد عظيم في هذا العالم بأسره. ثم تعاقبت الأنبياء وفي النهاية ظهر عيسى ومحمد عليهما السلام وبالرغم من انفراد كل منهما بخصائصه المميزة يقول ويلز: فإن هذين المعلمين نشآ بطريقة ما على شاكلة هؤلاء الأنبياء السابقين[15]. ولكننا نضيف، أنه تفرد بدعوى العالمية فأرسل الرسائل في حياته إلى ملوك الأرض وعظماء الأمم، فانتهت دعوته لكل الأمم[16].

ونضيف إلى ما تقدم أن ما من برهان يثبت به نبوة أو رسول من الأنبياء والرسل إلا ونجده أشد وأقوى وأدل على نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ودون خوض في تفاصيل سيرته إلا أن من الضروري بيان السمات الرئيسية التي تميز سيرته عن سائر الرسل لأنه آخر رسول للبشرية إلى قيام الساعة والسمات التي نعنيها هي:

أ- أن التاريخ الصحيح يؤيدها ويدل على صحتها.

---

(15) ويلز: معالم تاريخ الإنسانية – ترجمة عبدالعزيز جاويد، لجنة التأليف والترجمة والنشر **1948** المجلد الثاني ص**259**.

(16) المودودي: الحضارة الإسلامية ص**189**.

ب- أنها جامعة ومحيطة بمناحي الحياة كلها وجميع شؤونها وأطوارها.

جـ- أنها كاملة متسلسلة لا ينقصها أي حلقة من حلقات الحياة.

د- وهي عملية بحيث يعبر بها عن الفضائل والواجبات.

وفي حديثنا عن الرسالات نود الإشارة إلى الكتب التي أيدوا بها نبواتهم ومازال العالم يحتفظ ببقايا منها ولم يبق إلا الكتاب الأخير وهو القرآن كما أوحي به.

وما زالت أمة الإسلام تحتفظ فضلًا عن ميزة القرآن بميزة أخرى عن أهل الكتب الأخرى أي السند في رواية الحديث وبذلك احتفظت بنوع آخر من الوحي أي السنة وهو التسجيل الكامل للحياة الشخصية للرسول ﷺ بالأقوال والأعمال في جوانب السلوك الإنساني كله فنحن أمة السند يقول ابن تيمية: «وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد ﷺ وجعله سلمًا إلى الدراية فأهل الكتاب لا إسناد لهم يؤثرون به المنقولات».

وبذلك حفظ الله تعالى للأمة الإسلامية عقيدتها وأصبح من واجب المسلمين القيام بدورهم المناط بهم إذ يقع على عاتقهم الدعوة لهذه الرسالة في العالم كله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:**110**].

ويتضح للباحث التابع لأحداث التاريخ أن النزاع سيظل قائمًا بين الحق والباطل وبكلمة موجزة نقول: جاء الإسلام في الوقت الذي فشا فيه الباطل بأشكاله وصوره المختلفة وكان يتمثل إما في عقائد وثنية انحرفت عن الرسالات الإلهية الأصلية – كما اتضح لنا في مطلع دراستنا عند تناول الفكر الشرقي القديم – أو انحراف أهل الكتاب عن الشريعة الإلهية ونعني بهم اليهود والنصارى فقد أعلن اليهود العصيان لنبي الله عيسى عليه السلام وآذوه وانطوت النصرانية كما رأينا تحت جناح الفلسفة اليونانية.

وهكذا يمر الناس الآن بنفس الظروف تقريبًا فالمطلع على أحوال البشر يلاحظ ما يعانيه من حيرة وقلق واضطراب لسبب جوهري هو شيوع الباطل وربما بنفس أشكاله فإذا شخصنا الأمراض التي تعاني منها المجتمعات الإنسانية المعاصرة فإنها لا تخرج في أساسها عن الشرود عن طريق الحق.

وما زال الاختيار قائمًا بين طريق الحق الذي جاء به الإسلام أو أن يظل بنو آدم في غيهم يعمهون.

ولهذا كله جاء القرآن الكريم وسيظل يذكرنا في كل آن بالعقيدة الصحيحة في الإيمان بالله واليوم الآخر وتعريف الإنسان بأصله ومكانته في الوجود والغاية من خلقه ودوره في الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:**59**] وقال عز من قائل: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:**26**، **27**].

وقد آمن المسلمون الأوائل بالحقائق الغيبية واستقرت في عقولهم وقلوبهم وهم أهل أفضل القرون كما ورد في الحديث وكان هناك إجماع على صحة فهمهم وظل الأمر كذلك في العصور المفضلة في تاريخ الإسلام وقبل عصر الترجمة ومعرفة المسلمين لأية ثقافات أخرى فارسية أو يونانية أو غيرهما وما زال هذا التيار السلفي الذي يربط المسلمين بالفهم الصحيح للإسلام مازال قائمًا تربطه بالمصادر الإسلامية أي الكتاب والسنة وفهم السلف وشائج قوية فأصبح كالصخرة في الرسوخ والثبات إذ تنحسر عنها التيارات المنحرفة عن العقيدة الإسلامية الصحيحة فقد نبذ السلف كما هو معلوم كل الثقافات الطارئة من الأمم الأخرى التي تتعارض مع العقيدة الإسلامية الصحيحة.

ولم لا يفعلون؟ وقد أراهم الله تعالى الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أنما قاله هو الحق.

:

يؤكد جمهرة المحدثين من الفلاسفة أن الفلسفة وهي قالب الفكر الذي ارتضاه عالم الغرب لنفسه – لم تعد مجرد تأمل يستغرق صاحبه في عزلة عن صخب الحياة بل أصبحت دراسة للوجود ومكان الإنسان منه توطئة للإفادة منها في تجاربنا المشتركة والترقي بمستواها والعلم بأهداف البشرية البعيدة ومثلها العليا والمساهمة في العمل على تحقيقها[17].

فإذا كان الأمر كذلك وفي ضوء الأزمة التي تعاني منها الحضارة الغربية المستمدة من فلسفتها، فإننا نرى أن الفلسفة قد تنحت عن أداء دورها التقليدي، ولهذا فقد أصبح من الضروري أن تخلي مكانها لمنهاج آخر يستند على دعامتين أساسيتين هما العقل والوحي، للتعريف بالوجود كله بشقيه أي عالم الغيب وعالم الشهادة، ومكانة الإنسان ودوره ومصيره مع الأخذ بيده لتوجيهه إلى الطريق الصحيح في هذه الحياة.

ولعل تفسير ابن خلدون عن تقليد الأمم الغالبة يوضح لنا جانبًا من الأزمة التي انتقلت إلينا من الغرب المستعمر، إذ يعاني العالم الإسلامي من آثار الفلسفة الغربية ونظامها الشيوعي والرأسمالي – ومن ثم أصبح المسلم المعاصر بين أفكار وفلسفات تمتد سيطرتها على أغلب أجزاء المعمورة، لا باقتصادها أو قواتها العسكرية فحسب، ولكن أصبح واقعًا تحت تأثير عقائد وأفكار ونظريات تغزوه في عقر داره حيث مكنت وسائل الاتصال السريع في عالم اليوم، وأجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز ووكالات أنباء وطباعة متقدمة، مكنت كل هذه الوسائل من الضغط الشديد على العقيدة والأخلاق والأنظمة المختلفة في حقول التربية والتعليم والاقتصاد والسياسة وغيرها.

---

(17) د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص**129**.

والمسلم أمام أمرين لا ثالث لهما: إما التثبت بعقيدته للنجاة من حملات الغزو أو الاستسلام لها وإلقاء سلاح المقاومة فيجرفه التيار إذ يمشي مع السائرين على درب لحضارة الغربية بفلسفاتها وأخلاقياتها وأنماط حياتها، ولا يبقى له من عقيدته – إن بقيت آثارها في نفسه – إلا ظلالًا باهتة لن تنقذه من المصير المحتوم.

ولهذا ليس أمامه إلا العض بالنواجذ على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والحق أن المتدبر للقرآن الحكيم يستطيع أن يدرك أن الفكر الفلسفي في كل العصور لاسيما فيما يتصل بالحقائق الغيبية لا يتعدى كونه ضربًا من الظنون وأن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

ومما يدعو لتثبيت المسلم أيضًا أنه يتلو القرآن قاعدًا وقائمًا وعلى جنبيه فيستلهم آيات الآفاق والأنفس ويعرف كثيرًا عن المخلوقات في بدايتها وإلى أين تصير وكذلك يقرأ من كتاب الله – بل هو المشروع طبقًا للسنة أن يقرأ في ركعتي الفجر صباح يوم الجمعة بسورتي السجدة والإنسان وفيهما بيان حقائق خلق السموات والأرض وخلق الإنسان[18].

ومع تقديرنا للعقل الإنساني إلا أن له دورًا محدودًا، فكما أن العين لا ترى إلا مع ظهور النور أمامها فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه الشمس الرسالة، ويظهر ذلك جيدًا إذا تناولنا في حديثنا موضوع العلم الإلهي بصفة خاصة.

:

العلم الإلهي هو العلم الأعلى والأول بالإطلاق فإن الله سبحانه هو الأعلى وهو الأكبر ولهذا كان شعار أهل أكمل الملل هو «الله أكبر» في صلواتهم وآذانهم وأعيادهم وجهادهم.

---

(18) قال ابن القيم: لتضمنهما ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء خلق الإنسان إلى أن يدخل الجنة أو النار ص**133**.

أما الفكر الفلسفي فقد أخطأ عندما لجأ إلى العقل لاستمداد التصورات في العلم الإلهي وسبب الخطأ يرجع إلى جعل العقل في موضع الأصل والعكس هو الصحيح أي أنه ما دام الإنسان مخلوق مربوب مصنوع، فإنه ينبغي عليه الرجوع إلى خالقه وفاطره وصانعه طالبًا العلم والعمل لأن هذا الترتيب هو الموافق للحقيقة وهذه الطريقة أي تقديم الأصل على الفرع هي الموافقة لفطرة الله وخلقته ولكتابه وسنته.

وإذا تقيدنا بتعريف العلم الإلهي عند شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه يعني العلم بالله العمل له وهو فطري ضروري وأنه أشد رسوخًا في النفس من مبدأي العلم الطبيعي والرياضي فالقول مثلًا بأن الواحد نصف الاثنين أو أن الجسم لا يكون في مكانين في وقت واحد فإن هذين النوعين من المعرفة المتصلين بالعلمين الطبيعي والرياضي قد تعرض عنها أكثر الفطر وأما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطره، وهي الفطرة التي فطر الإنسان عليها ثم تزداد رسوخًا مع النظر في الآيات.

وقد أظهرت أبحاث العلماء المعاصرين ثبوت دليل الفطرة إذ كشفت عن التشابه الغريب بين عقائد القبائل البدائية في القارات الخمس وانقسم المفسرون لهذه الظاهرة إلى فريقين – فريق يرى أن الإنسان تلقى إلهامًا بالوحدانية قبل التاريخ وقبل الأجناس والقارات – وفريق يرى أن الطبيعة الإنسانية تتقارب في وحي البديهة وتستلهم شعورًا واحدًا بما وراء المادة المشهودة.

:

جعل الإسلام الإيمان بالملائكة أيضًا أصلًا من أصول الإيمان، وأول ما يتبادر للذهن هو توضيح حقيقة الملائكة التي أشاعت حولها المذاهب الفلسفية والأديان الأخرى الأباطيل، فإنها عند بعضها معبودات وآلهة أو أرباب ينوبون عن الله ويساعدونه في تسيير نظام الكون، وعند البعض مجرد

عقول، وزعم البعض مجرد عقول، وزعم البعض أنهم بنات الله، أو أنهم شركاء الله في الألوهية والربوبية. وإزاء كل هذه المزاعم الخاطئة جاء القرآن بالتصور الصحيح للملائكة[19].

أما عن منزلة الملائكة في نظام الكون فقد بينها القرآن وفصل القول فيها تأكيدًا لدعوة الإسلام إلى التوحيد الخالص الكامل في وجود الله تعالى وصفاته وأفعاله، ومن ثم فليس للملائكة إلا الطاعة والعبادة والتسبيح والتقديس، فلا يغفلون عن وظيفتهم ولا يفترون عنها ولا للحظة واحدة في الليل والنهار، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:19-20]، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:6]، إنهم مأمورون بأداء الأعمال التي نيطت بهم كالنزول بالوحي الإلهي على الرسل والأنبياء ونفخ الروح في الجنين وقبض الأرواح عند الموت وإنزال المطر وتسجيل أعمال الإنسان، وكل هذه الأعمال لا تخضع إلا لأمر الله تعالى وحده، فليست لهم أية فاعلية مستقلة – ولذا وصفهم الله بقوله ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات:5][20].

ويكفينا هذا القدر من الحديث عن الملائكة من جهة واحدة حيث عنينا بتوضيح حقيقتهم للرد على الآراء الفلسفية والنحل الأخرى التي ذهبت مذاهب شتى فحادت عن طريق الصواب وكذلك سنعني أيضًا بالكلام عن الإيمان باليوم الآخر لصلته بالتصور الصحيح للحياة بشقيها: الدنيا والآخرة. ولكن مسائل الإيمان – بعد الإيمان بالله تعالى – ليست محصورة في هاتين المسألتين كما نعلم، حيث أورد القرآن الحكيم كل ما يتصل بالإيمان في آيات متعددة.

---

(19) المودودي: الحضارة الإسلامية ص160.

(20) المودودي: الحضارة الإسلامية ص160.

فقد قيل في موضع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت:**30**] **وفي موضع آخر ذكر الإيمان بالله مع الإيمان باليوم الآخر:** ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة:**63**]، **وفي موضع ثالث وردت الدعوة إلى الإيمان بالرسل مع الإيمان بالله** ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:**179**]. **وفي موضع آخر ذكر الإيمان بالله مع الإيمان بالكتب الإلهية والقرآن واليوم الآخر** ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [النساء:**162**]، **وقيل في سورة البقرة** ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:**177**]، **وكذلك حديث جبريل عليه السلام عن الإيمان.**

آخر:

لاشك أن الإيمان بالغيب من الأمور التي أتى بها الرسول ﷺ وأخبر عن الغيب المطلق الذي تعجز العقول عن معرفته[21] وأكدها بالأدلة والأحاديث النبوية زاخرة ومنها اليوم الآخر وما سيدور في هذا اليوم، ومن الضروري أيضًا التنبه إلى أهمية الإيمان باليوم الآخر لانعكاس أثر ذلك على حياة الأفراد والمجتمعات فالفرق كبير بين إنسان يؤمن بالبعث والحساب والعقاب في الدار الآخرة وإنسان آخر لا يؤمن بذلك كله ولا يتصوره هذا فضلًا عن تأثير هذا الاعتقاد على الأعمال والسلوك في شتى جوانب الحياة الإنسانية في هذه الدنيا، ونود في هذا المجال أن نلجأ إلى العلم التجريبي لكي نثبت بالأدلة أن فتوحات هذا العلم جاءت مؤيدة لعقيدة الإسلام في اليوم الآخر – ولن نتوسع

---

(21) ابن تيمية: جواب أهل العلم والإيمان ص**123**، دار الكتب العلمية – بيروت **94**هـ - **74**م.

في دراستنا إلا بالقدر اليسير الذي يحقق لنا هذه الغاية فهناك من الظواهر ما يؤكد مجيء هذا اليوم طالت مدة انتظاره أم قصرت، وعلى سبيل المثال نذكر الظواهر الآتية:

1- ظاهرة البراكين.

2- ما اتفق عليه العلماء من ضرورة وجود الأثير حيث تسجل فيه الأقوال ولا تنمحي فضلًا عن تسجيل الأعمال كلها بالموجات الحرارية الصادرة من الأجسام.

وبشيء من التفصيل اليسير سنعرف أن الزلازل ليست إلا نذير يذكر الإنسان بأنه يعيش دائمًا فوق نار متأججة لا يملك إزاءها شيئًا ولا يفصلها عنه سوى قشرة لا يزيد سمكها عن **50**كم وهي بالنسبة للكرة الأرضية ثمرة التفاح يقول عالم الجغرافيا جورج جاموف: (إن جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان وبكلمة أخرى نحن واقفون على ظهر لغم أي ديناميت عظيم ومن الممكن أن ينفجر في أي وقت ليدمر النظام الأرضي بأكمله).

كذلك أقوال الإنسان محفوظة فقد ثبت قطعيًا أن الموجات الحاملة للأصوات تبقى كما هي في الأثير إلى الأبد وسلم العلماء نظريًا بإمكان إيجاد آلة التقاط أصوات الزمن الغابر كما يلتقط المذياع الأصوات التي تذيعها محطات الإرسال ولأمكن حينئذ سماع تاريخ كل عصر وزمان بأصواته ومن هنا لا تبقى حقيقة الآخرة بعيدة عن القياس ولذا نقول: أن كل ما ينطبق به الإنسان يسجل وهو محاسب عليه يوم الحساب ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

ويستمر العلم الحديث في خطواته ليؤكد لنا أن جميع أعمالنا التي نباشرها في الضوء أم في الظلام في حالة الصور فقد أثبتت البحوث أنه يصدر عن كل

الموجودات حرارة بصفة دائمة في كل مكان وفي كل الأحوال وأمكن تصوير الموجات الحرارية بآلات تصوير دقيقة[22].

والمغزى المعتبر من هذا الاختراع هو إثبات أن جميع تحركاتنا تسجل على شاشة الكون حيث لا يسعنا منعها أو الهرب منها لأنها أشبه بقصة تصور في الاستديوهات ثم نشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن وحينئذ يصرخ الناس ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ [الكهف:**49**].

ونود بعد ذلك الإشارة بإيجاز إلى بيان وجهة النظر الإسلامية بمنهج انتقائي.

:

إن الحديث عن الإنسان مستفيض لخصائصه الفريدة وقدراته ومواهبه حتى ليتكاتف عليه الأطباء وعلماء النفس ورجال التربية ورواد الأخلاق وغيرهم فلا يحيطون به علمًا، ومادام الأمر كذلك فيكفينا التنسيق بين بعض الأفكار التي تدور حول هذا الكائن الفذ، والحق أن المكتبة الإسلامية زاخرة بتراث ضخم سنلتقط منها بعض الكلمات التي تصور الإنسان في ناحيتين؛ أحدهما الناحية الميتافيزيقية، والثانية الناحية الأخلاقية.

:

إن المصدر الوحيد الذي يمدنا بحقائق مؤكدة عن خلق الإنسان ومكانته وغايته هو القرآن الحكيم، ولذا عني مفكرو الإسلام باستمداد نظرتهم من القرآن مباشرة.

مثال ذلك ما كتبه ابن تيمية في تفسيره لبعض الآيات القرآنية في هذا المجال مثال قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ وقوله عز وجل:

---

(22) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى ص**73**.

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ فأصل الإنسان التراب وفصله الماء وهنا تظهر القدرة الإلهية التي تبهر العقول وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيلها من شيء إلى آخر فإذا خلق الله الإنسان من المني فالمني استحال، وصار علقة، والعلقة استحالت وصارت مضغة، والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام إذا فالإنسان مخلوق خلقة الله جواهره وأعراضه – كلها من المني أي من مادة استحالت فهي ليست مادة باقية أحدث الله فيها صورة الإنسان كما يزعم الفلاسفة[23].

وعن الموت والبعث يذكر ابن تيمية أنه عند إفناء الإنسان إذا مات وصار ترابًا فني وعدم كما يفني سائر ما على الأرض لقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾ ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداء من التراب ويخلقه خلقًا جديدًا ولكن للنشأة الثانية أحكام وصفات ليست للأولى.

ويقدم لنا الأصفهاني[24] نظرة أخرى فيذكر أن الإنسان مركب من بدن محسوس وروح معقول مستندًا إلى قوله تعالى: ﴿أني خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ فالروح هي النفس ويرى أن إضافتها إلى الله تعالى تشريفًا لها.

وللإنسان عنده ثلاثة أفعال تختص به وهي:

أ- عمارة الأرض في قوله تعالى: ﴿واستعمركم فيها﴾ لتحصيل المعاش لنفسه ولغيره.

ب- الامتثال لله سبحانه وتعالى في عبادته وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

جـ- وخلافته المذكور في قوله تعالى: ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعلمون﴾.

---

(23) ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام.

(24) الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة. (متوفى **502**هـ).

ولا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس ويتم تطهيرها بوسيلتين هما:

1- العلم. **2**- والعبادات.

والعبادة – كما يعرفها – (فعل اختياري مناف للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى طاعة للشريعة)[25].

أما دورها فهو المحافظة على الفطرة التي خلق بها الإنسان المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ فالعبادة تزيل رين القلب فينطبع فيه صورة الهداية كما ترتفع العبادة إلى أرقى مراتبها عندما يؤديها الإنسان متحريًا ابتغاء مرضات الله فيؤديها بانشراح صدر بدلًا من مجاهدة النفس، ولهذا قيل في الأثر: «إن استطعت أن تعمل لله في الرضا فاعمل وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير».

:

إذا تقيدنا بالتصور الأخلاقي عند ابن تيمية فإننا نلاحظ ما يراه من حركة الإنسان نحو غاية فتعريفه للإنسان أنه «حي حساس متحرك بالإرادة» فله إرادة دائمًا أما الغاية فهي تتعدد وتتخذ صورًا مختلفة أما المال أو الجاه أو الرئاسة أو محبة الرجل للمرأة والمرأة للرجل وغير ذلك من الأمور المطلوبة للدنيا، أما كمال الإنسان فيتحقق في أن يكون مراده هو الله سبحانه وتعالى لأن من لم يكن عبدًا لله فلابد أن يصبح عبدًا لغيره من أنواع المحبوبات التي تستعبده بخلاف الإنسان المؤمن فإن المثل الأعلى لسلوكه هو أن يكون مراده هو الإله الذي يستحق أن يكون محبوبًا لذاته فالنفس في حاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومحبوبها ومنتهى مرادها ومن حيث هو ربها وخالقها.

والخلق كلهم محتاجون إلى خالقهم لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى كما قال تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ وقال في آية أخرى:

---

(25) الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص**152**.

﴿إذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآ بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ وقال في غيرها ﴿كان يؤوسًا﴾.

أما الراغب الأصفهاني – ت **502**هـ تقريبًا – فيرى أن الإنسان في دنياه مسافر متخذًا الدليل على ذلك الخلق قال تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾.

ويستشهد بعبارة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الناس على سفر والدنيا دار ممر لا دار مقر وبطن أمه سفره والآخرة مقصده» الخ.

فالغاية للإنسان ينبغي أن تكون دار السلام ويحتاج في سفره إلى التزود للسفر وهو في كدح وكبد ما لم ينته إلى دار القرار كما قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه﴾ ويحتاج الإنسان في سعيه إلى خمسة أشياء:

1- معرفة المعبود المشار إليه بقوله: ﴿ففروا إلى الله﴾.

2- معرفة الطريق المشار إليه بقوله: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة﴾.

3- وتحصيل الزاد المشار إليه بقوله: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾.

4- المجاهدة.

5- وبهذه الوسائل يأمن الغرور الذي خوفه الله تعالى منه في قوله: ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾[26].

ولا يخرج ابن تيمية كثيرًا عن الإطار الذي سبقه إليه الأصفهاني إذ يصور لنا الإنسان في حركة مستمرة لكي يتخلص من العوائق التي تحول بينه وبين الوصول إلى غايته ولفظ الوصول لفظ مجمل لأنه ما من سالك إلا وله غاية وإذا قيل وصل إلى الله أو إلى توحيده ومعرفته أو نحو ذلك ففي ذلك من

---

(26) الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص**78**.

الأنواع والدرجات المتباينة ما لا يحصيه إلا الله والإنسان في حاجة إلى التوبة الدائمة أثناء حركته نحو ربه فيصل إلى أفضل ما في الدنيا ولا يتم ذلك إلا بالعبادات المشروعة لأن الإسلام يقوم على أصلين هما:

1- أن يعبد الله وحده.

2- وأن يعبد بما شرع ولا يعبد بالبدع.

أظهر ما في العبادة اثنان؛ الصلاة: التي هي قوت القلوب والجهاد وهدفه جعل كلمة الله هي العليا ويدل على كمال المحبة لأنه البذل في سبيل ما يرضي الرب، وهو أنفع من كل عمل، لأنه مشتمل على محبة الله تعالى، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائمًا، إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة، وكلاهما هدف سام يحقق السعادة في الدنيا والآخرة وبالعكس، ففي تركه ذهب السعادتين أو نقصهما وإذا كان من الناس من يرغب في ترقية نفسه حتى يصادفه الموت فعليه بالجهاد بالمال والنفس (فموت الشهيد أيسر من كل ميتة، وهي أفضل الميتات)[27].

ويوضح لنا ابن تيمية أيضًا حركة الإنسان نحو الكمال مفسرًا التقدم والأفضلية بالمفهوم الإسلامي حيث يظهر الفضل الكامل لبني آدم في دار القرار تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾. وهكذا فإن الارتقاء في جوهره أخلاقي بحيث يصل الإنسان حينئذ إلى مستوى أفضل من الملائكة فلا يظهر فضل الإنسان في ابتداء أحواله وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله وليس أدل على ذلك من ثبات أحوال الملك الذي يتشابه أول مره وآخره فالقاعدة الأساسية إذن إذا تكلمنا عن الرقي الإنساني وتقدمه الحضاري يكمن في رقيه الأخلاقي

---

(27) ابن تيمية: السياسة الشرعية ص132، ط دار الكتاب العربي 1951م.

وسبيله إلى ذلك الحرية بالمفهوم الإسلامي وهي تعني تحرير الإرادة الإنسانية من سلطان الهوى والشهوات والسمو بالغرائز وتهذيبها خضوعًا لأوامر الله عز وجل لأن الخضوع لها خبط عشواء – كما يتوهم كثير من مفكري العصر الحديث – يعني في حقيقته انقيادًا لقوة عمياء واستعبادًا للإرادة لا تحررها.

أما الحرية الحقيقية فهي تحرير هذه الإرادة من سلطان الهوى ونفوذ الشهوات، فإن القلب – الذي هو ملك الجسم – يصبح ذليلًا أسيرًا إذا كان مستعبدًا، متيمًا لغير الله. ولشيخ الإسلام تفسير منفرد للحرية في الإسلام، يقول (وهذا لعمرو الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة. فأما من استعبد قلبه صورة محرمة. فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب. وهؤلاء عشاق الصور، من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا)[28] ثم يقرر أن الحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما أن الغنى غنى النفس مستندًا إلى الحديث (ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس)[29].

وليس هذا فرضًا نظريًّا ولكن يدعمه شيخ الإسلام بحقيقة مؤكدة إذ يستطيع الإنسان بعمله الوصول إلى المستوى الرفيع إذ ظهرت أرقى مراتب الكمال الإنساني في الأنبياء عليهم السلام وفي مقدمتهم نبينا محمد ﷺ حيث ظهر فضله على الملائكة ليلة المعراج لما صار لمستوى يسمع فيه صرير الأقلام وعلا على مقامات الملائكة.

أما الحديث عن موقف الإنسان المسلم في العصر الحاضر فيقتضي التمهيد بنبذه عند اتجاهات هذا الفكر:

---

(28) ابن تيمية: السياسة الشرعية ص**132** ط دار الكتاب العربي سنة **1951**م.

(29) رواه الشيخان.

امح اتجاهات الفكر المعاصر:

قد لا يختلف اثنان أننا نعيش في جو حضاري غربي يسيطر على أغلب أنحاء العالم ويتسلط عليه بأفكاره وفلسفاته ومن أدق ما قيل في وصف الحضارة المعاصرة أنها تبني صروحًا في الخارج من شوارع فسيحة وعمارات ضخمة وناطحات سحاب ومصانع هائلة ومنتجات لا نهائية ونظم إدارية[30] ولكن هذه المظاهرة الخارجية لا ينبغي أن تحول اتجاهنا لدراسة دوافعها وأسسها التي تتمثل في فلسفة الغرب بعامة. فإن الأفعال كما نعلم هي في معظم الأحيان مجرد ثمرات لمجموعة من الأفكار، وأنه لا قيام لأية حضارة بدون دعائم فكرية تستند إليها، وربما استطعنا في هذه الدراسة أن نلقي الضوء على أبرز الاتجاهات السائدة في الفلسفة الغربية وتظهر كالآتي:

: المادية كما تظهر في تصور الماركسية، فالوجود مادي، وكذلك الإنسان مجرد مادة أي جسد ولا قيمة له كفرد، ولكن المجتمع هو السيد والفرد كالآلة في مصنع ضخم فإن تحقيق المذهب يستلزم إخضاع الفرد للدولة في جميع الشئون وخنق كل حرية فكرية[31] ويتحدد غرض الإنسان في الحياة في إشباع حاجاته المادية وصولًا إلى المجتمع الشيوعي حيث يتساوى فيه البشر جميعًا في الحقوق والواجبات، ومن ثم يلغي الجهاز الحكومي عند تحقيق هدف الفلسفة الماركسية، وهي كما نرى تقوم ضمن أفكارها على تصور الإنسان مجرد غرائز ودوافع حيث ينطلق كالحيوان لإشباع حاجاته خاضعًا خضوعًا

---

(30) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص**47**.

(31) وكل من يظهر رأيًا مخالفًا للحزب يلقي به في السجون ومعسكرات العمل الإجباري والمصحات العقلية ويواجه بتهمة الخيانة والعمالة وقد ازدادت ظاهرة نفي العلماء والأدباء والفلاسفة المعارضين للنظام الشيوعي خارج البلاد، وأشهرهم عالم الرياضة بليوشتن، والكتاب سولجنيتسين والمؤرخ أندريه أما لريك مؤلف كتاب (هل يصمد الاتحاد السوفيتي حتى سنة **1984**؟). ويوكوفسكي الذي جمع آراءه في كتاب (مرض عقلي جديد اسمه المعارضة).

تامًا لما تمليه عليه أهداف المجتمع وغاياته ممثلة في تنفيذ مخطط مرسوم بواسطة أعلى سلطة في الحزب الشيوعي الحاكم ولا يسمح لرأي ثان بالظهور وإلا اعتبر خارجًا عن النظام العام وفلسفة الحزب ومن ثم يستحق الإبعاد والنفي[32]. والحق أن المذهب المادي في تفسير الوجود – والماركسية أحد صوره الحديثة – مذهب قديم قدم الفلسفة حيث ظهر في المحاولات الأولى التي أراد بها فلاسفة الإغريق في الطبيعة أن يفسروا الوجود برده إلى الماء والهواء أو غيره من العناصر ثم تحول على يد ديموقريطس إلى فلسفة الجواهر المفردة أو الذرات حيث ينشأ عن حركتها اجتماع لبعضها البعض على صور شتى، فتتكون الأشياء بتكوينها وتفسد وتنحل بانفصال الجواهر، وامتد تفسيره إلى النفس أيضًا فادعى بأنها تتألف من هذه الجواهر المادية[33] ونحن نؤيد وجهة النظر القائلة بأن الثقافة الروسية وفلسفتها ليست إلا امتدادًا للحضارة الغربية إذ تتشابهان من حيث التخلي عن شخصية الإنسان الروحية وفضائله الأخلاقية[34].

ا: كذلك لا تخرج الحضارة الغربية كونها إرثًا للحضارة اليونانية والرومانية فإن التصورات الفلسفية هناك يرتبط جذورها بالأجداد الأقدمين، حيث ظهر للدارسين أن موضوعات ومناهج الفلسفة الغربية الحديثة ليست إلا ترديدًا لأقوال آبائهم الأولين مع اختلاف يسير فانعكست آثار هذه الفلسفات على الأنظمة الاجتماعية والسياسية، وهناك الفكر القائلة بأن العنصر البشري الأوروبي هو أرقى الأجناس وعليه إخضاع باقي الأمم لسيطرته وسطوته فقديمًا أباح أفلاطون في (الجمهورية) استرقاق اليوناني لغير اليوناني – ولم

---

(32) وقد ازداد عدد المعارضين الآن بشكل أثار صيحات عالية بسبب انتهاك حقوق الإنسان وتعرف هذه الحركة بحركة المحتجين والمنشقين.

(33) د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص**244**.

(34) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص**16**.

يكن بدعًا أن ترى نتشه في العصر الحديث يرفع صوته بفكرة (السوبرمان) قاصدًا به الجنس الغربي الأبيض اللون، فأينعت فلسفته النظام النازي، وما التفرقة العنصرية بأشكالها المختلفة إلا ترديدًا لنفس الفلسفة.

وقد رأينا منذ قليل أن المذهب المادي قديم قدم الفلسفة كذلك فإن الوجودية ليست جديدة كما يظن البعض إذ يرى الدكتور توفيق الطويل أن هذه الفلسفة ظهرت نواتها عند سقراط وأفلاطون وأوغسطين وبسكال وغيرهم.

وسبب ذيوعها وانتشارها في العصر الحديث يرجع إلى عوامل في مقدمتها قيام الحرب العالمية وما ترتب عليها من مآسي حيث افتقد الناس الشعور بالطمأنينة والاستقرار، فانصرفوا عن الفكر المجرد إلى النظر في حياة الإنسان اليومية.

أما ما نقصده بالاختلاف اليسير الذي أشرنا إليه آنفًا فنعني بذلك أن مدار البحث الفلسفي من قديم الزمان انحصر في النظرة للوجود والمعرفة حيث عرف أرسطو الفلسفة بأنها البحث في الوجود بما هو موجود بالإطلاق رغبة في معرفة العلل البعيدة والمبادئ الأولى، وظل هذا الاتجاه قائمًا في الفلسفة التقليدية عند المحدثين وبعض المعاصرين، ثم نقلت أكثر الفلسفات المعاصرة مجال التفلسف من دراسة الوجود بعلله البعيدة إلى البحث في وجود الإنسان.

وقد أقرت هذا الوضع اتجاهات الفلسفة المعاصرة من المادية الجدلية إلى الوجودية إلى البراجماتية فقد رأينا فكرة ماركس عن نمو الحياة الإنسانية فردية كانت أو اجتماعية إذ تتوقف في رأيه على الظروف المادية والاقتصادية فليس وجدان الناس وأفكارهم هي التي تعين وجودهم، وإنما وجودهم الاجتماعي الذي يعين وجدانهم، وتقوم الفلسفة الوجودية على تصوير مغاير للنظر الفلسفي التقليدي فهي قائمة على عكس هذا التصور وتعتقد أن الوجود أسبق من الماهية كما سنرى عند الدراسة التفصيلية للمذهب. كما طغى عليها

تيار العبث فيذكر سارتر أن الإنسان هو الموجود الذي يشعر بأنه قد وجد جزافًا وأنه يدرك ذاته بوصفه عبئًا لا طائل تحته، ويزعم أن الإنسان يعرف دائمًا أنه زائدًا عن الحاجة.

فإذا انتقلنا إلى الفلسفة العملية «البرامجاتية» لدراسة أفكارها من خلال التجربة الأمريكية العملية فإننا نرى فيها محاولة التوفيق بين اتجاهين:

أحدهما: الفكر الكلاسيكي المسيحي المتطرف في إيمانه بالقيم العليا.

: الفكر الطبيعي بتطرفه في الإيمان بالعلم التجريبي.

ولكنها بدورها تطرفت في النهاية نحو المادية النفعية وها نحن نستمع لأحد فلاسفتها وهو «وليم جيمس» يعبر لنا عن فلسفته ببيان نقطة الاختلاف بينه وبين المدرسيين[35] فالفكرة الواحدة قد تكون صادقة في وقت ما أي حين تؤدي إلى نفع ثم باطلة في وقت آخر، أي حين تفشل في تحقيق منفعة، وهذا يذكرنا بالمذهب السوفسطائي القديم الذي أدى إلى الخلط بين الحق والباطل وزعم نسبية القيم.

:

ومن ملامح الفكر الحديث أيضًا ما يسمى بالعلمانية فمن متابعتنا للمراحل المتعاقبة التي مرت بها الفلسفة اليونانية وعلاقتها بالتقدم العلمي لأوروبا ونهضتها العلمية لاحظنا أن العلم لم ينهض إلا بعد الثورة المزدوجة على السلطة العلمية ممثلة في منطق أرسطو والسلطة الدينية ممثلة في رجال الكنيسة ونجم عن ذلك ظهور طريقة الحياة التي سميت بالعلمانية هي تعتمد على وضع الدين (أي دين) في الجهة لهذه الدعوة وادعاء ضرورة الاختيار بين هذا أو ذاك أي الاعتماد على مصدر واحد للمعرفة هو العقل ورفض تام لسائر

(35) وليم جيمس: العقل والدين ص**19**. ترجمة د. محمود محب الله الحلبي **1368**هـ-**1949**.

المصادر الأخرى وعلى رأسها الوحي[36].

والآن نجيب على السؤال: ما هو الموقف إزاء ما يدور حولنا؟

:

يعيش المسلم منذ نحو قرنين من الزمان في أزمة أي منذ استهداف أراضيه للغزو والاحتلال العسكري واستهداف كيانه العقلي والوجداني والأخلاقي لحملة عاتية للقضاء على هذا الكيان وسحقه وإحلال كيان آخر محله.

وبإيجاز شديد بعيدًا عن التحليلات المطلوبة لشرح أحوالنا نقول: إننا نرى أن المسلم المعاصر يعيش في مأزق لمحاولته المواءمة بين عقيدته الإسلامية وبين الحياة العصرية المبنية على طراز غربي فضلًا عن مذاهب فكرية متعددة تنشر أجنحتها على العالم لتطويقه واحتوائه، ولا يمكن تفسير ضراوة معارك الغرب ضد الإسلام إلا برغبته في أن يصبح خضوعنا كاملًا لإطفاء كل نور هداية وإلا فإنه يحس – وحضارته تحتضر – أنه في خطر والأدلة على ذلك كثيرة سنقتصر منها على قولين لاثنين من كبار رجال الغرب:

أحدهما: جلادستون؛ الذي تفوه بعبارته المشهورة: مادام هذا القرآن موجودًا في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق.

: براون؛ الذي قال: «إن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته المدهشة[37] فما المخرج؟ وكيف يمكن للمسلم في هذا العصر وهذه أبرز ملامحه من إنقاذ نفسه وكيانه وأمته من المد العاتي للحضارة الغربية التي تود أن تكتسح أمامها الأفكار والقيم والعقائد لتحل محلها أفكارها وقيمها وعقيدتها؟

---

(36) سقوط العلمانية: عماد الدين خليل ص**36**.

(37) جلال العالم: دمروا الإسلام، أبيدوا أهله ص**37**.

كيف السبيل للانتقال من مرحلة المقاومة إلى مرحلة تأكيد الذات ثم التحول إلى التحدي[38] ينبغي أن نلاحظ أولًا أن صمود هذه الأمة بالرغم من الكوارث والنكبات التي حلت بها لاسيما القرن الأخير المنتهي بالقضاء على الخلافة الإسلامية دليل ما بعده دليل على أن مقومات كيانها صحيحة، وأن بوسعها النهوض من جديد لتأخذ بزمام الأمور فما زلنا مدعوون لقيادة العالم من جديد بعد أن فشل وتخبط عندما قطع صلته برسالة السماء، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:**104**].

ولنا أن نكتفي بهذا الحكم من مصدره القرآني الذي وصف هذه الأمة في آية أخرى بأنها خير أمة أخرجت للناس ونتبعه بأحد الشواهد الدالة على بداية انفراج أزمتنا. يقول البير ماشادور في كلام طويل له عن التنبؤ بظهور المسلمين من جديد واكتساح الإسلام للعالم: (ولست متنبئًا لكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة ولن تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها، إن المسلم قد استيقظ وأخذ يصرخ: ها أنذا لم أمت[39]).

ونعود إلى سؤالنا مرة أخرى. ما المخرج؟

ربما تضمن القسم الأول من هذه الدراسة الإجابة الجزئية عن هذا التساؤل حيث ظهر لنا من خلال ما ذكرناه آنفًا ومن سياق الأفكار التي وردت اتضح الجانب العميق من المعركة الدائرة منذ القدم معركة بين العقيدة السماوية والوثنية الأرضية بشتى صورها ولا حاجة بنا من جديد للبرهنة على إفلاس حضارة الغرب في إيجاد الحلول لمشاكل الإنسان ويرجع السبب فيما يرجع إلى أنها هي نفسها آخذة في الانهيار كما يرى بعض رجال الفكر هناك ونشير فقط على سبيل التذكرة بما ورد على لسان كارليل: (ولقد أصبح الفرد ضيقًا

(38) انظر رأي مالك بن نبي ص**57**.

(39) ن.م ص**37**.

فاجرًا غبيًا غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته أن ضعفنا الحالي مستمد من عدم تقديرنا للفردية ومن جهلنا بتكوين الإنسان)[1].

أما نحن معشر المسلمين فقد كان لعلماء السلف دورهم الهام عندما استندوا إلى القرآن فاستطاعوا بالاستناد إلى ما تضمنه من الحق والقياس العقلي البين. استطاعوا شجب الفكر اليوناني وآية ذلك ما سبق أن بيناه من وضوح حقائق عالم الغيب وهي من الموضوعات التي عجز الفكر الفلسفي التوصل إليه عندما ركب عقله الغرور.

وفي دائرتنا التي نتكلم عنها علينا أن نتبع المنهاج القرآني لا في التشريع والأنظمة وشئون الحياة كلها فحسب، بل علينا أيضًا ونحن نتناول شئون العقيدة والفكر استخلاص الحقائق من القرآن والحديث لمجابهة – بل نقول تحدي – كل التصورات البشرية المتسمة بالعجز والقصور، فقد ظهر ذلك بصفة خاصة لدى فلاسفة الإغريق وسيزداد ظهورًا عندما نعرض لنموذجين من الفكر المعاصر ممثلًا في المادية الجدلية والفلسفة الوجودية.

بقيت مهمة أخيرة نرى توجيه النظر إليها ونعني بذلك أنه من واجبنا التسلح بالنظرة الواعية للتاريخ، فلا يخدعنا المظهر الخارجي لأحوال الأمة الإسلامية بتقليدها لمظاهر الحضارة الغربية فإن ذلك من قبيل ما يسميه شبنجلر: (التشكل الكاذب)[2] لأن الحضارة تقوم مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال بما بما لها من ذاتية خاصة ومن ثم فإن تشخيصنا لأحوالنا الحضارية ينبغي أن يبدأ بالوعي بلغة التاريخ ومقومات الحضارات إذ ما حيلتنا وقد تحقق النموذج الأول الصالح في حضارتنا عند ظهور الإسلام ومنار التاريخ للأمة الإسلامية يدور رحاه حول فكرة «المد والجزر» يقول الأستاذ الندوي: (إن المد والجزر في تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين تابع للمد والجزر في

---

(1) الإنسان ذلك المجهول ص**308**، **309**.

(2) نفس المصدر ص**102**.

الإيمان)[1].

ولذا فإن وضعنا يختلف تمامًا عن وضع حضارة الغرب فهي تفر من ماضيها لأنه ماضي التخلف والجهل لاسيما في عصورها الوسطى فتصورت التقدم في المضي قدمًا إلى الإمام ولهذا فإن كل جديد فهو متصل بالارتقاء الحضاري، والمستقبل مهما كان أفضل من الماضي بصرف النظر عن الالتزام أو عدم الالتزام بالقيم والمبادئ والمثل بل هي نفسها تتغير.

أما نحن فنتطلع دائمًا إلى ما نصطلح على تسميته باسم «النموذج والقدوة» كما ورد في الحديث: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» رواه الشيخان.

ونفهم من حديث آخر أن طائفة من هذه الأمة تظل سائرة على نفس المنهاج: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» رواه البخاري ومسلم.

فالطريق أمامنا ميسر مهده لنا سلفنا الصالح، حيث أثبتوا بإقامتهم أمة إسلامية كبرى تحول العقيدة من النفوس والقلوب إلى مجال التطبيق والتنفيذ وإنارة العالم بنور الحضارة القائمة على التوحيد والعبودية لله تعالى وحده.

وهذه الحقيقة تسلمنا إلى معرفة واجباتنا أمام جيوش الغرب الفكرية والعلمية الزاحفة علينا، ولذا فإننا نرى ضرورة قيامنا بأعباء رسالتنا، فليس من الصواب تجاهل الصراع الذي نراه ونلمسه في زحفه علينا، ولكن اضطلاعنا بمسؤليتنا يقتضي مناوأة الباطل، وهذا بدوره يحتاج إلى بيان تهافته وفقًا للمنهج العلمي في التحليل والنقد.

ولا يهزم الإسلام قط أمام منهج العلم وقوانين العقل، وسيتأكد لنا ذلك عندما نعرض لمذهبين من مذاهب الفكر المعاصر وهما: الماركسية – والوجودية؛

ل:

---

(1) الندوي: المد والجزر في تاريخ الإسلام ص92.

الفلسفة الماركسية وموقف الإسلام منها

قبل الحديث عن الماركسية نرى من الأفضل التقديم لها بالتعريف بالمادية بإيجاز لأنها تعد مرتبطة بها وهي فرع من فروعها.

وتوصف بالمادية كل المذاهب التي تفسر الوجود تفسيرًا ماديًا صرفًا ولا تجد له أصلًا إلا المادة.

وقد عرف قديمًا أول ما عرف عند الفلاسفة الطبيعيين في الفكر اليوناني وفي العصر الحديث تجمع المادية بين فلسفات عدة مثل شيوعية ماركس في الشرق «الأوروبي» وفلسفة فرويد في أوروبا والبراجماتزم في أمريكا وكلها تمثل أصلًا واحدًا وإن اختلفت المظاهر والفروع[1].

وسنقتصر على الماركسية لا لما تثيره من دوي كبير وإغراء للطبقات العاملة ونقاش في ميدان الفكر فحسب بل بما أضرمته من نيران الثورات والفتن حتى أصبح لهذه الفلسفة كيانًا قويًا ممثلًا في دولة كبرى تتخذ من هذه الفلسفة نظامًا ومنهجًا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتسعى بشتى الوسائل لنشره في العالم كله دينًا تأمل أن يدخل فيه الناس أفواجًا.

وليس للشيوعية صورة واحدة في التطبيق بل اختلفت وتعددت باختلاف القائمين على تفسيرها وتطبيقها بل يعتبر البعض أن لها جذورًا تاريخية عند مزدك، يقول الشهرستاني: «وكل مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال فأحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كالشركة في الماء والنار والكلأ.

وظهرت الفكرة من جديد في العصر الحديث ففي القرن التاسع عشر الميلادي ظهرت الحركة الاشتراكية العلمية ومن دعاتها روبرت أوين الإنجليزي وسان سيمون الفرنسي ثم دعي إليها كارل ماركس اليهودي وإنجلز

---

(1) محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام ص17.

الإنجليزي ثم انتشرت الفكرة ما اعتنقها ماوتس تونج في الصين وتيتو في يوغوسلافيا وبيفان في بريطانيا واتخذت بعد ذلك صورًا شتى في اتجاهاتها وطرق تنفيذها فهناك الاشتراكية العلمية والماركسية والشعبية والتيتوية والعمالية والتعاونية[1].

غير أنها بقيت في العصر الحديث تنسب إلى ماركس الذي اعتبر نبي الشيوعية العصرية الذي أشعلها فتنة عالمية.

وتنسب الشيوعية العصرية إلى كارل ماركس **1818-1883**م ولد في ألمانيا من أصل يهودي وتنصر أبواه كما نصرا ابنهما البالغ من العمر **6** سنوات لا عن اعتقاد بالمسيحية بل فرارًا من التحقير الذي كان يلقاه اليهود وقد استهوته نظرية دارون في التطور من ناحية كما تأثر بمثالية هيجل[2] وأجاز لنفسه استخدام فكرة التناقض في تفسيره للتاريخ ليصور لنا صراع الطبقات وتنازعها فالحياة الاقتصادية يحكمها قانون التناقض أو الصيرورة فما هو أصل هذه الفكرة عند هيجل؟

يجل:

يمكن تسمية هذه الفكرة بفكرة الثنائية أو الحوار تبسيطًا للمفهوم لأن الحوار يقدم رأيين متقابلين إذ لا نفهم الفكرة في ذاتها ولكن بضدها أيضًا أو كما قيل في المثل القديم – وبضدها تمييز الأشياء ولا تتوقف فكرة التناقض على الفعل وضده بل يتركبان فيصبحان شيئًا واحدًا ثم يبدأ التناقض مرة أخرى حتى ينتهي إلى تركيب أتم من التركيب الأول ولتوضيح ذلك ولتبسيطه أيضًا نضرب مثالًا على ذلك بالماء. إن الماء دعوى «قضية». ولا ماء وهو البخار مقابل الدعوى.

---

(1) عبدالعزيز البدري: حكم الإسلام في الاشتراكية ص**25**.

(2) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص**371**.

وصيرورة الشيء إلى نقيضه وهو هنا في هذه المثال صيرورة الماء إلى البخار جامع الدعوى ومقابل الدعوى ثم تمضي الصيرورة في طريقها بهذه الكيفية أي دعوى فمقابل الدعوى فصيرورة الماء إلى بخار ستتحول من جديد إلى ماء فبخار وهكذا[1].

وهكذا يتتابع التطور التاريخي على هذا القول وتتقدم المعرفة لأنها ناجمة عن وجوه متعددة وتأتي بعد الخلاص من قيود النقائض كما يصبح التناقض بهذه الكيفية دافعًا للحركة والتقدم والحرية حتى يبطل التناقض في الأجزاء باحتوائها جميعًا وهذا الكل في النهاية لا يوجد شيء خارجه يناقضه فهو الحرية بغير حدود والمعرفة بغير مجهول فكيف استخدم ماركس هذا القانون المزعوم؟

استخدم ماركس القانون في مجال آخر غير مجال الفكرة عند هيجل فقد استخدمه في مجال الاقتصاد واستند في هذا الاستخدام إلى تاريخ الجماعة لكي يدلل على وقوع انهيار المجتمعات وتحولها من الملكيات إلى المجتمعات الإقطاعية فهي في تصوره قد انهارت لأنها تضمنت عنصر المقابلة أو النقض. وعلى هذا المنوال ستنهار المجتمعات الحديثة الرأسمالية وتتحول إلى المقابل والنقيض لها وهو المجتمع الشيوعي ذو الطبقة الواحدة من العمال.

ويتحقق بذلك فكرة الحتمية في تفسير أدوار التاريخ إذ يظهر في نهايته المجتمع الشيوعي حيث تكون السلطة للدكتاتورية العمالية على أنقاض المجتمع الرأسمالي[2].

---

(1) د. البهي: الفكر الإسلامي الحديث ص**338**، **339** ط **1970**م.

(2) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص**383**.

إنسان:

يرى ماركس أن الحياة الإنسانية فردية واجتماعية تتوقف كلها على الظروف المادية والاقتصادية وأن درجة الحضارة تقاس بدرجة الثروة الزراعية والصناعية وأن نوع الإنتاج في الحياة المادية شرط تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية على العموم.

وهنا تثور أمامه صعوبة إذا ما اقترب من الفكر الإنساني والشعور الإنساني لتحليله وبيان مصدره.

ولكنه لا يعدم تفسيرًا ماديًا أيضًا فيعرف «الفكر والشعور» بأنهما من نتائج الدماغ البشري – بل الإنسان كله نتاج الطبيعة فالدماغ ليس إلا مادة دقيقة التركيب والعقل أداة مادية تعكس المؤثرات الخارجية ثم تتأثر بها ولكنه هو في ذاته ليس حقيقة فعالة مؤثرة ولذا فالمادة قبل الفكر.

ومجمل القول أن نظرته للإنسان هي نظرة مادية حيوانية تنفي الجوانب الروحية والمثل العليا[1].

أما عن أصل الحياة فقد وجدت الخلية الأولى التي تشعبت منها سلسلة التطور نتيجة تفاعلات كيماوية وبيولوجية في عصور جيولوجية سحيقة[2].

:

1- أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث في فكرته عن المذهب هو قيام ماركس بعملية التلفيق والترقيع بين المادية والمثالية وفي بيان ذلك يقول الأستاذ العقاد: «فمن الترقيع أن تستعار فلسفة هيجل من المثالية إلى المادية وتستعار معها مصطلحاتها وأدوارها ويمضي في شرحه فيبسط الفرق بين الفلسفة

---

(1) محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام ص**64**.

(2) خفاجي: حوار مع الشيوعيين في السجن ص**84، 85**.

النظرية – وهي عبارة عن تصورات الذهن قد يصل فيها صاحبها إلى ما يصبو إليه لتقريب الحقيقة إلى الإدراك الإنساني فكيف يدعي ماركس أن هذه التصورية باطلة في النظر عند هيجل ولكنها أصبحت على يديه صادقة في الواقع؟[1].

ولاشك أن هذا الترقيع عرض الماركسية إلى كثير من التعديل والتغيير الجذريين في أصولها المنهجية والفكرية في أقل من ربع قرن. والحق أن الفكر الشيوعي منذ ولد كان في وضع لا يسمح له بالحياة والاستمرار إلا بقدر ما تحميه القوة التي يملكها.

2- كما يظهر بطلان المذهب في أساسه المادي في محاولة استخراج الموجودات على اختلاف أنواعها من المادة البحتة وإذا كان للظروف المادية والاقتصادية أثرها في حياة الإنسان فإن هذا الأثر لا يعدو تكييف هذه الحياة وتوجيه بعض أفعال الإنسان وتبقى القوى الإنسانية ويبقى الوجدان.

3- ومما يؤخذ على التطبيق الفلسفي لمبدأ النقيض في الفلسفة الماركسية أنها تقف لتترقب تحول المجتمع الرأسمالي إلى النقيض أو المقابل له وهو المجتمع الشيوعي عند حد هذا المجتمع ولكنها لا تذكر – فضلًا عن أن تترقب توقع انهيار المجتمع الشيوعي وسقوط وهدم نفسه في مجتمع مقابل له بناء على أن كل شيء يتضمن نقيض نفسه وأن فيه عامل الهدم لنفسه.

4- ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم ما يعرف عن محاولة ماركس تعديل مهمة الفلسفة بحيث يجعلها قاصرة على التغيير كمنهج يرسم طريقًا للتفكير والعمل فقط ومن هنا لم تنجح هذه الفلسفة في تفسير المقولات الرئيسية عن الإنسان والعالم والمصير ومن جاء مقتل الفلسفة المادية حيث انتهت إلى شيء غريب لا هو بقوانين العلم ولا الفلسفة المثالية الخالصة لتفوق الأخيرة

---

(1) العقاد: الشيوعية والإنسانية ص**122**.

بنقطة بدء صحيحة هي وجود الله وجودًا مجردًا كذلك انهار سلطان التفسير المادي تحت ضربات العلم حيث أصبح العلم يعني بجزئيات فروعه كالنبات والحيوان والطبيعة والكيمياء إلى آخره. أصبح لكل نوع ولكل فرع من نوع قوانينه وعلمه الخاص وظهر بذلك عجز المادية عن تقديم التعليل الصحيح المتفق مع نتائج العلم.

العلم:

يطول بنا الحديث لو نظرنا إلى الفلسفة الماركسية في ضوء الخطوات الواسعة التي خطاها العلم عما كان عليه عندما أعلن ماركس تفسيره المادي.

ومن هنا سنقتصر في معالجتنا لنقطتين:

أ- اختفاء فكرة الحتمية في القانون العلمي.

ب- تبدل النظر إلى المادة في ضوء التجارب العلمية.

ونتكلم عن هاتين النقطتين باختصار فيما يلي:

أ- الحتمية: بدأ فكرة الآلية أو الحتمية تظهر أمام العلماء في فكرة «حتمية القانون العلمي القائم على مفهوم السببية التجريبية حيث تراءت لجاليليو ونيوتن قوانين الفلك والمادة في حتمية لا فكاك منها ويا ليتها وقفت عند هذا الحد في تفسير الحركات الطبيعية – ولو فعلت لكان لها عذرها بسبب قصور المنهج التجريبي في وقتها – إنما امتد طغيانها بفعل غرور الآخذين بها ونفوذهم وشهرتهم العلمية لكي تشمل من العلوم ما ليس للتجربة فيه نصيب كعلوم الإنسان من أخلاق ونفس واجتماع وتاريخ[1].

ولكن ثبت في ضوء التقدم العلمي الحديث خطأ فكرة الحتمية وحل محلها الاحتمال والظن والتخمين فالعلم إذن هو عبارة عن تصورات ذهنية ناشئة عن الملاحظة والتجريب من شأنها أن تثمر الجديد من الملاحظة

---

(1) أحمد إبراهيم الشريف: الحتم والحرية في القانون العلمي ص22، 23.

والجديد من التجريب وبناء على هذا التصور فالعلم ليس مطلقًا يبحث عن اليقين غاية ولكنه على الأصح مطلب نجاحه يتوقف على درجة استمراره واطراده واتصاله.

ب- من خير ما يصلح كمقدمة لهذه النقطة قول الأستاذ العقاد «كان أحدهم يرفض تفسير الكون بالفكرة أو الحقائق الغيبية ويقول وهو يدق بيده على المائدة ويخبط بقدمه على الأرض هذه الحقيقة التي تفسر لنا كل شيء وليست تلك الفروض المغيبة وراء الواقع الملموس باليدين»[1].

فما الذي حدث إزاء هذا التصور؟ كان من أهم التطورات العلمية في القرن العشرين أن البحث في تركيب الذرة قد دلنا على أن المادة مؤلفة من كهرباء وقد ثبت ذلك بالدليل الحسي وأخذت صور فوتوغرافية للبروتونات والإلكترونات المتحركة ودخل لغة العلم لفظ جديد هو الطاقة والأصل في الطاقة أنها الاستطاعة والمقدور في لغة العلم فهو نوع من المقدرة أيضًا إلا أنها مقدرة الأجسام على إحداث الحركة.

وإذا كانت الثنائية قد ظهرت في المادة بعامة فهي أظهر ما تكون في كيان الإنسان حيث لا يمكن تفسير الإنسان إلا بوجود حقيقة أخرى غير مرئية وهي الروح فالذي يقول بأن الإنسان مجموعة وظائف مادية لا غير عليه أن يفسر لنا أين يذهب ذلك الإنسان في لحظة النوم حيث تقوم جميع وظائف الجسم بأداء دورها أثناء النوم فنحن أمام رجل نائم أشبه بشجرة فأين الإنسان في تلك الجثة النائمة إذا تحركت نشطت وأدت أدوارها في الحياة؟[2].

اهم:

وتأتي حقائق الإسلام فتتوج ما دعمه الفكر الإنساني والنظر العلمي التجريبي وقد سبق أن قلنا أن الإسلام لا يهزم قط في مناقشة حرة بل يزدهر

---

(1) العقاد: الشيوعية والإنسانية ص124.

(2) د. مصطفى محمود: رحلتي من الشك إلى الإيمان ص25.

وتتألق براهينه من خلال الحوار العقلي[1] فالفكر المستنير المستند على موازين سوية يرى تناقضًا في استناد الفلسفة الماركسية على أهم أفكار الفلسفة المثالية وكذلك فإن التصور العلمي الذي يزعم الماركسيون أنهم يبنون عليه جدلهم وتوقعاتهم الحتمية هذا القصور قد أصبح مخالفًا تمامًا لما كان يظنه أهل العصر الذي عاش فيه صاحب المذهب ولذا فإننا نستطيع القول أن الموقف الإسلامي يتضمن هذين النقدين ونضيف إليهما أمرين:

إلحاد: أو القول بأن الدين أفيون الشعوب – إذ أننا نرى أن ماركس لم يفطن إلى ما نتج عن الإلحاد من الهبوط بالإنسان إلى درك البهيمة ونحن نعلم أنه كان يهوديًا في أعمق أعماقه ولم تكن مهاجمته لليهودية إلا لتبرير محاربة الأديان الأخرى وإليكم وصف توينبي حيث لفت نظره تقليد الماركسية للعقيدة الدينية في معالمها الرئيسية حيث نشاهد الماركسية تتحول إلى بديل عاطفي وثقافي للمسيحية الأرثوذكسية مع إحلال ماركس محل موسى عليه السلام ولينين مكان المسيح عليه السلام وقيام مجموعة أعمالهما بدور الكتب المقدسة لهذه الديانة الإلحادية ذات الطابع الحربي على أن الظاهرة تأخذ طابعًا مختلفًا إذ تحول اهتمامنا من العقيدة إلى الأعمال[2].

ألا يدل ذلك على معرفة أصحاب المذهب لحاجة الإنسان إلى الدين وأن العاطفة الدينية لاصقة بالنفس ولها تأثيرها العميق في حياة الشعوب والأفراد؟

وإذا خصصنا الإسلام بالحديث فإن من المعروف أن الإسلام يأبى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ويأمره أن يأخذ من طيباتها بل نذهب إلى أبعد من ذلك فنستعرض مواقف أعداء الإسلام الذين لاحظوا أنه لا يمكن اتهامه بتحسين الجبن أو الاستكانة لأتباعه ومن هنا خطر لهم أن يصفوه بنقيض ذلك

---

(1) خفاجة: حوار مع الشيوعيين ص**83**.

(2) توينبي: موجز تاريخ العالم جـ**1** ص**342**، وينظر أيضًا ص**340**، **349**.

ويبالغوا فيما وصفوه فيقولوا عنه أنه دين السيف أو دين القتال.

:

يزعمون أنها انبعثت من الخلية الأولى بعد العصور الجيولوجية الموغلة في القدم فأرجعوا الحياة إلى الصدفة وقد أصبح من قبيل الغض من قيمة العقل بل الاستهانة بشأنه محاولة الإيهام بنشأة الحياة من الصدفة.

فهل هناك افتراض أوهن من القول بأن الصدفة هي التي أوجدت العالم؟ وما هو الأقرب إلى التصديق: أنرجع الخلق إلى الصدفة أم إلى خالق قادر حكيم مدبر تنطق المخلوقات كلها بصفاته ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ إذ لا نملك أمام تأمل آيات المخلوقات في دقتها وتناسقها وانبثاق الحياة في الكائنات كلها من صغيرها ودقيقها كالحشرات والديدان أكبرها وأعظمها كالكواكب السيارة من الشمس والقمر والأفلاك السائرة في الفضاء؟ إننا لا نملك إلا الوقوف متسائلين أبالصدفة تلتئم الجروح وتخيط شفراتها بدون جراح؟ بالصدفة يدرك عباد الشمس أن الشمس هي مصدر حياته فيتبعها؟ بالصدفة تستدل الطيور والأسماك على أوطانها بعد آلاف الأميال وعبر الصحاري والبحار؟ بالصدفة يكسر الكتكوت البيضة عند أضعف نقطة فيها ليخرج؟ فالحق أن العالم الذي نعيش فيه يدل على النظام والانضباط من أصغر ذرة إلى أكبر فلك فالعبث غير موجود إلا في عقولنا وأحكامنا المنحرفة وباختصار شديد للموضوع كله نقول: إن الزعم بأن كل هذا النظام حدث صدفة كالادعاء بأن انفجارًا في مطبعة أدى إلى أن تصطف الحروف على هيئة قانون محكم ولاشك أن هذه المحاولة تدل على استماتة العقل الخبيث الماكر لتجنب صوت الفطرة الذي يفرض نفسه فرضًا ليقول بأن هناك خالقًا مدبرًا حكيمًا عظيمًا جل شأنه[1].

---

(1) د. مصطفى محمود: رحلتي من الشك إلى الإيمان ص**96** وما بعدها.

الوجودية
وموقف الإسلام منها

تنسب كلمة (الوجودية) إلى الوجود، لا الوجود المطلق ولكنها تعني أن يهتدي الإنسان إلى وجوده بنفسه، لا بالتحليل النفسي والمراقبة الباطنية، ولا يهتدي بهدى الأخلاق المقررة وأصول الآداب المتواضع عليها لأنها تنشأ قبل نشوء الأفراد وإنما نهتدي إلى وجودنا بثورة في أعماق هذا الوجود: أي بصدمة عاطفية قوية، أو بيقظة من يقظات الضمير أو بضربة من ضربات التجارب تفصلنا عن المجتمع الذي نعيش فيه أو نتناول مكاننا منه بالتحويل والتبديل[1].

بدأت الوجودية بمؤسس هذا المذهب في العصر الحديث سورين كركجرد الدنمركي، وكانت حياته تفسر مذهبه إذ اصطدم في مقتبل شبابه ثم تعددت المذاهب فأصبحت وجوديات كثيرة. وكان الأساس الصحيح التي تقوم عليه الوجوديات السليمة هو إنصاف الفرد من طغيان الجماعة وعلى استقلاله – كحركة رد فعل ضد طغيان المذهب الشيوعي وسيطرة الجماعة على الفرد. حدثت له صدمة عاطفية فاختار وجوده أن يعيش على سنة السيد المسيح عليه السلام في هذه الدنيا التي لا تجتمع فيها القداسة والوجاهة، وكان يؤمن بحق الفرد في اختيار عقيدته أعظم من حق الكنيسة وحق الجماعة، فالفرد وحدة غير قابلة للتكرار، وكل ما يستطيعه المؤمن للمؤمن أن يريه بالمثل المحسوس أن باب الاختيار مفتوح، وأنه إما أن يختار وجوده بإلهام ضميره أو يضيع[2].

أما الصورة الأخرى فهي صورة الإباحية الأخلاقية يقيمها أصحابها على

---

(1) العقاد: أفيون الشعوب – دار الاعتصام ص99 ط75م المذاهب الهدامة.

(2) العقاد: أفيون الشعوب ص99 دار الاعتصام ط1975م.

سند فلسفي يسوغون به ضعفهم وانحلالهم وهم يخجلون من الضعف والانحلال بغير سند منسوب إلى الفكر والفلسفة[1].

ولم يبعد المذهب على هذه الصورة التي تركها كيركجارد، إذ انتقل في فرنسا على يد أمثال سارتر وألبرت كاموس وسيمون دي بوفوار، واصطبغ بسمات خاصة، ففيها النزعة الوجدانية وفيها الإيمان بحرية الفرد وفيها التمرد على سلطان الكهانة[2].

وانتقلت هذه الأفكار ضمن ما انتقل إلى العالم الإسلامي من خلال ترجمة الأعمال الفلسفية والأدبية، ولكن لم تعرف الوجودية على الأغلب في العالم الإسلامي كفلسفة بقدر ما عرفت مما تسرب من آثارها في الأعمال الأدبية كالقصة والرواية التي عبرت عن حالة الغربة والضياع واللاجدوى لاسيما عقب الحرب العالمية الثانية، لأنها ظهرت هناك بسبب تضاعف الخطر على وجود الفرد بعد ظهور الشيوعية والنازية والفاشية وما إليها وكلها أنظمة تلغي حق الفرد في جانب حق الدولة أو الجماعة.

وارتبطت الوجودية في الأذهان لدى المثقفين بعامة بسارتر وإنتاجه الفلسفي والأدبي وأكثر ما تتمثل آراؤه في رواياته المسرحية، وأبطاله المعروضة في تلك الروايات ومنهم من يستبيح الإجرام أو الشذوذ أو التبذل أو الخيانة[3]. ولذا فسنقتصر على الإلمام بآرائه توطئة لنقدها من وجهة النظر الإسلامية.

:

تقوم الوجودية كفلسفة على فكرة رئيسية مؤداها أن الوجود أسبق من الماهية، ويعرف سارتر الوجودية بأنها مذهب إنساني، إلا أنه يلح في تحليل

---

(1) المصدر نفسه ص**119**.

(2) المصدر السابق ص**105**.

(3) العقاد: بين الكتب والناس ص**26**.

النواحي القذرة البشعة من الإنسان في قصصه ومسرحياته، ويعود موقفه الميتافيزيقي إلى الادعاء بأنه يجب البدء من (الذاتية) لدراسة الإنسان، فينظر إليه كما هو موجود في بيئة معينة وفي كل فرد دون اعتبار للمعنى الكلي الذي يقال أنه يمثل الماهية[1].

وفي هذا الصدد يقول سارتر: (إن ذلك يعني أن الإنسان يوجد قبل كل شيء، يصادف ويظهر في الطبيعة والكون ومن ثم يحدد ويعرف)[2].

فما هي الطريقة التي يقرر بها الفرد وجوده؟

عند بعضهم أن وجود الفرد يتقرر ويتحقق بإطلاق العنان لرغباته وشهواته يفعل ما يشاء ولا يبالي العرف أو الدين، وعند فريق آخر من الوجوديين أن الفرد يتحقق وجوده إذا اتصل بالوجود الأعظم، وجود الإله أو وجود الكون، وعند البعض منهم يتحقق وجود الفرد بمواجهة المخاوف والأخطار والتعرض للقلق والمحنة واستخراج كل قوة في أعماق النفس بتجربة الخوف والتغلب عليه وقبول الاختيار[3]، وهكذا تتراوح آراء الوجوديين بين المؤمنين والملحدين، أما أكثرهم تطرفًا – وهو سارتر اليهودي الفرنسي فإنه يقرر أن: (الإنسان كما تتصوره الوجودية ليس له في البدء أي وجود حتى يمكن تعريفه وتحديده، وأن هذا التعريف وهذا التحديد لا يصح وجودهما إلا بعد أن يكون الإنسان قد وجد على الشكل الذي يوجد نفسه عليه).

وتصور سارتر ناجم عن إلحاده وكفره إذ ينكر ماهية الإنسان المخلوق سلفًا[4]، وبعبارة أخرى فإنه مادام الفرد هو الموجود الحقيقي، فلا معنى للقول بالطبيعة البشرية، والقول بالأخلاق التي تفرضها هذه الطبيعة، أو بالأقدار التي

---

(1) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص**434**.

(2) سارتر: الوجودية مذهب إنساني ص**37**.

(3) العقاد: أفيون الشعوب: ص**108**، **109**.

(4) سارتر: الوجودية مذهب إنساني ص**37**.

رسمت لها طريقها قبل أن تبرز إلى عالم الوجود[1].

وإزاء افتقاد الإنسان لطريق الهداية فإنه لن يجد عونًا في هذه الأرض ولن يجد ما يهديه أو يحدد له معالم سيره ولذلك فعلى عاتق الإنسان وحده يقع عبء تفسير معالم الحياة التي هي أشبه بالطلاسم. ومادام الإنسان مدعو في كل لحظة لعملية يسميها (اختراع الإنسان) فإنه يحتاج إلى تغيير أخلاقه دون التوقف عند مبادئ ثابتة.

وهنا يحس بالمأزق لأن هدم أسس الأخلاق وإنكار القيم الأزلية لا يبقى على شيء له أهمية واعتبار في الحياة ويصبح الفرد قادرًا على التصرف كما يشاء وعاجزًا في الوقت نفسه عن الحكم على تصرفات غيره. وعندئذ نراه مضطرًا للإبقاء على حد أدنى لثبات الأخلاق، فيعترف بأنه مهما كانت الأخلاق متغيرة فإنه لا يعدم منها مظهرًا يصح أن يعتبر شاملًا[2].

وإذا اعترف بثبات الحد الأدنى، فما المانع من إقرار الحد الأعلى؟ فالأخلاق قيم كيفية، وليست مقادير كمية كالدينار والدرهم.

:

أول ما يقال أن تصور سبق الوجود على الماهية خطأ في العقل والمنطق وخطأ في القياس والاستدلال، فوجود النوع الإنساني أولًا وجود حقيقي صادق في الحس كصدق وجود الفرد أو أصدق لأن وجود النوع الإنساني حقيقة (بيولوجية) من حقائق اللحم والدم، وليس فرضًا من فروض التصور في الأذهان، ولا يتم كيان الفرد نفسه إلا إذا نضجت منه الوظائف النوعية التي يتحقق بها وجوده كما يتحقق بها النوع[3].

كما يفهم من المذهب أيضًا بأنه لا يهتم بوصف مظاهر خيرة من مظاهر

---

(1) عباس العقاد: بين الكتب والناس ص**25**.

(2) سارتر: الوجودية مذهب إنساني ص**106**.

(3) العقاد: بين الكتب والناس ص**26**.

الحياة فلا يصور إلا الجبان والفاسق والضعيف والمائع وصاحب الخلق المنحل متناسيًا مظاهر الحياة الآملة في المستقبل، فكأنه ينظر دائمًا إلى الذين هم فضلات في جسم الإنسانية متخذين منهم مقطع النظر إليها جميعًا فأدى ذلك إلى التشاؤم والقلق والسخط والشك في الخير والحق والقيم[1] لذا فقد غاب عن الوجودية أو تعمدت نكران الأحاسيس البهيجة للإنسان متمثلة في معاني لا يمكن حصرها نذكر منها على سبيل المثال مظاهر إنسانية لا ينكرها إلا من انطمست بصيرته، والأمثلة على ذلك كثيرة كحنان الأمهات وتضحيات الآباء ومحبة الأهل والأخوة والأصدقاء ومظاهر الحياة المشعة بالأمل حولنا كابتسامة الطفل وإشراقة الشمس وضوء القمر، وتجدد الحياة حولنا في أشكالها المختلفة الرائعة أن الوجوديين من أتباع سارتر يتعمدون إنكار الأحاسيس بالانتصار والنجاح ومتعة الوصول إلى الأهداف وخبرة السعادة بالتضحية والإيثار وغيرها من مباهج الحياة ومتعها المشروعة.

وهذه الأدلة مستمدة من أحاسيس وجدانية وخبرات إنسانية لا يخلو منها كلها أو بعضها إنسان قط وإلا لأصبحت الحياة غير محتملة، ولأقبلت البشرية كلها على الانتحار الجماعي لو اقتصرت على الصور الممسوخة التي يقدمها سارتر في قصصه ومسرحياته، ولما قامت حضارات ولما قرأنا عن تاريخ أمم عاشت قرونًا طويلة، ولدمر الإنسان نفسه بنفسه.

أما المسلم فتشع في جنبات نفسه روح التفاؤل، وتشحذ همته العقيدة التي تفتح باب الأمل مهما تعسرت الأمور حتى في أعظمها شأنًا – وهو دينه – لأنه يعلم أن مع العسر يسرًا. وجاء القرآن الحكيم محذرًا من التردي إلى هاوية اليأس:

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ

---

(1) عبدالمنعم خلاف: العقل المؤمن ص**138**.

بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:**15**].

يقول أحد المفسرين:

(من كان يظن أن الله لن ينصر دينه ولا رسوله فليقتل نفسه بأن يعلق حبلًا في السماء أو في سقف بيته ثم ليربط به عنقه ربطًا محكمًا حتى يختنق، ثم لينظر هل ينقذه هذا العمل من غيظه ويشفيه منه.. أن محمدًا لابد منتصر.. وقد انتصر.. وسينتصر دينه على الدوام بإذن الله القوي القهار)[1].

وبعد النقد يأتي البحث عن الدوافع وراء هذا المذهب. يقول الأستاذ العقاد:

(ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية، كلما شاع منها في أوروبا مذهب جديد، ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود)[2].

وحجته في ذلك أن سارتر نصف يهودي أو أكثر من نصف يهودي لأن أمه يهودية ومعظم أيامه يقضيها مع اليهود.. ولن تفهم المدارس الحديثة في أوروبا ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لاشك فيها، وهي أن أصبعًا من أصابع اليهود – كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان[3].

ام منها:

افترض سارتر والمروجون لآرائه فروضًا نسجها في خياله وبدأ منها كمسلمات لا نقره عليها للأسباب التي سنذكرها: فقد رأى افتقاد الإنسان لطريق الهداية وحمله وحده مسئولية تفسير معالم الحياة فصارت أمامه أشبه

---

(1) عبدالودود يوسف: تفسير المؤمنين ص**266** – المؤسسة العلمية – دمشق ط**1395**هـ - **1975**م.

(2) العقاد: بين الكتب والناس ص**33**.

(3) العقاد: بين الكتب والناس ص**32**.

بالطلاسم، فأخذته الحيرة وأسلم نفسه لهواجس القلق ومعاول الضياع.

وهنا تظهر حاجة الإنسان إلى الإيمان استجابة لفطرته بل إنه يحتاج للإيمان أكثر من حاجته للطعام والشراب، ثم بالإيمان ذاته يعرف حقيقة نفسه، ويتمكن من تفسير الحياة فتتضح أمامه دروبها ومسالكها ويعرف غاياتها.

إذ (لولا إيماننا بالقضاء والقدر لقتلنا الحزن، ولولا إيماننا برحمة الله لقتلنا اليأس، ولولا إيماننا بانتصار المثل العليا لجرفنا التيار، ولولا إيماننا بخلود الحق لجسدنا أهل الباطل أو كنا معهم، ولولا إيماننا بقسمة الرزق لكنا من الجشعين، ولولا إيماننا بالمحاسبة عليه لكنا من البخلاء أو المسرفين، ولولا إيماننا بعدالة الله لكنا من الظالمين، ولولا رؤيتنا آثار حكمته لكنا من المتحيرين)[1].

وهكذا فإن الإيمان بالله تعالى ورحمته هو الركيزة التي يستند إليها كل خير. فمن هدمها فقد هدم كل شيء وعندئذ تصبح الحياة سأمًا والكون عدمًا كما يزعم سارتر وهدجر.

أما المسلم فهو يعرف الغاية من خلقه، روى الثعلبي في تفسيره عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:116].

■ لم خلق الخلق؟

فأجاب:

(لأن الله كان محسنًا بما لم يزل فيما لم يزل فأراد الله أن يفيض إحسانه إلى خلقه، وكان غنيًا عنهم، لم يخلقهم لجر منفعة، ولا لدفع مضرة، ولكن خلقهم وأحسن إليهم، فأرسل إليهم الرسل حتى يفصلوا بين الحق والباطل، فمن

---

(1) د. مصطفى السباعي: هكذا علمتني الحياة ص95، 96.

أحسن كافأه بالجنة، ومن عصى كافأه بالنار)[1].

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب، وعد ذلك كله ابتلاء فقال: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ وقال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملًا﴾ وقال: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملًا﴾ فأخبر سبحانه وتعالى أنه خلق العالم وقد أجل الخلق، وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار[2].

وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم، في الخير والشر، والسراء والضراء، ووردت الأحاديث الكثيرة في بيان ما يقابله المؤمن في حياته من ابتلاءات طوال عمره، منها:

أ- عن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له». (رواه مسلم).

ب- وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء (أي محنًا وشدائد)؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة. رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا والترمذي.

وقال حديث حسن صحيح.

---

(1) ابن تيمية: شرح حديث النزول ص157.

(2) ابن القيم: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر ص132.